المستوى الثاني/الكتاب الثالث

شرح حديث

أبي الدرداء في طلب العلم

للحافظ ابن رجب الحنبلي

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

أما بعد؛ فهذه الرِّسالة التي نحن بصدد قراءتها رسالة قيّمة في بابها، لإمامٍ جليل تتميز مؤلفاته عمومًا بالنقول المفيدة لكلام السلف رحمهم الله تعالىٰ، مع تنبيهاتٍ دقيقة ولطائف جميلة يُعنىٰ بها رَحِمَهُ اللَّهُ، يربطك من خلالها بالسَّلف نهجًا وسلوكًا، خلقًا وأدبًا، عِلمًا وعملًا.

وقد أفرد رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرِّسالة في «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم»، وهو حديث جامع جمع فضائل عظيمة ينالها طالب العلم في سلوك هذا السبيل، وقد اعتنىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ بشرح جمل هذا الحديث والفضائل التي اشتمل عليها جملةً جملة، فأحسن وأفاد وأجاد، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يبارك لنا في مجلسنا هذا وأن يجعله باب خير علينا أجمعين، وأن ييسِّر لنا اليسرىٰ وأن يجنِّبنا العسرىٰ، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

ونشرع في قراءة هذه الرِّسالة مستعينين بالله، مستمنحين منه التوفيق والتسديد جلَّ في علاه.

قال العلامة الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم»:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

خرّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم: أن رجُلًا قدِم مِن المدِينةِ علىٰ أبِي الدّرداءِ وهُو بِدِمشْق، فَقَالَ: ما أقْدمك يا أخِي؟! قال: حدِيثٌ بلغنِي أنّك تُحدِّثُهُ عنْ رسُولِ اللهِ ﷺ.

قال: أما جِئْت لِحاجةٍ؟ قال: لَا. قال: أمَا قَدِمْتَ لِتِجارةٍ؟

قال: لاَ. قَالَ: ما جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الحدِيثِ؟ قال: نَعَمْ.

قال: فإِنِّي سمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «منْ سلَكَ طرِيقًا يبْتغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الجنّةِ، وإِنَّ الملائِكة تضعُ أجْنِحَتَهَا رِضًىٰ لِطالِبِ العِلْمِ، وإِنّ العالِم ليسْتغْفِرُ لهُ منْ فِي السّمواتِ ومنْ فِي الأرْضِ حتّىٰ الحِيتانُ فِي الماءِ، وفضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كفضْلِ القمرِ علىٰ سائِرِ الكواكِبِ، وإِنَّ العُلماء ورثةُ الأنْبِياءِ، وإِنّ الأنْبِياءَ لمْ يُورِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهمًا إِنّما ورّثُوا العِلْم؛ فمنْ أخذ بِهِ أخذ بِحظٍّ وافِرٍ».

هذا الحديث حديث عظيم جدًّا، وقد جمع فيه النبي عليه الصلاة والسلام فضائل جليلة عظيمة الشأن، ينالها طالب العلم إذا وفقه الله ﷻ لسلوك هذا الطريق.

والحديث حديثٌ ثابت محتجٌ به، وإن كان السند فيه ضعف لأن في إسناد هذا الحديث داود بن جميل وكثير بن قيس وهما ضعيفان، لكن الحديث صحيح لما له من شواهد ولما له من متابعات تدل علىٰ صحّته وأنه محتجٌّ به، وحوىٰ هذا الحديث فضائل عظيمة لطالب العلم عندما يسلُك هذا السبيل -سبيل طلب العلم.

وكان لرواية الصحابي الجليل لهذا الحديث قصّة ومناسبة: وهي أن رجل قدم من المدينة علىٰ أبي الدرداء وهو بدمشق -من المدينة إلىٰ دمشق-، واستحضر في ذهنك أن الرحلة من المدينة إلىٰ دمشق في ذلك الوقت ليست كالرحلة في وقتنا هذا، ففي وقتنا هذا تقطع هذه المسافة بالطَّائرة بساعة أو ساعتين بالكثير، وبالسيارة في حدود عشر ساعات، أما في ذلك الوقت فهو يحتاج إلىٰ شهر كامل سفرًا حتىٰ يصل إلىٰ دمشق، فرحل تلك المدّة الطويلة وما في السَّفر من عناء ومشقة وتعب ليلقىٰ هذا الصحابي الجليل

يتعلَّم عليه العلم ويأخذ عنه.

فسأله أبو الدَّرداء: (ما أقْدمك يا أخِي) لأي شيءٍ جئت من المدينة؟!

(قال: حدِيثٌ بلغنِي أنّك تُحدِّثُ) به (عنْ رسُولِ اللهِ ﷺ.

قال: أما جِئْت لِحاجةٍ) يعني ما لك عمل آخر، حاجة أخرىٰ، شغلة أخرىٰ-؟ (قال: لاَ.

قال: أمَا قَدِمْتَ لِتِجارةٍ؟ قال: لَا.

قَالَ: ما جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الحدِيثِ؟ قال: نَعَمْ.)

فانظر الهمة العالية الكبيرة والحرص القائم في قلوبهم علىٰ تعلم حديث رسول الله ﷺ، ولهذا كان الواحد منهم يرحل لأجل حديث واحد، ويرىٰ أنه فاز بغنيمة عظيمة عندما يحصّل حديثًا في رحلته أو حديثين؛ فهذا يدلُّ علىٰ علوّ الهمة وكِبر الرَّغبة في العلم وتحصيله.

قال أبو الدرداء: (فإِنِّي سمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ:

«منْ سلَكَ طرِيقًا يلتمس فِيهِ عِلْمًا سهّل اللهُ له بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الجنّةِ،

وإِنّ الملائِكةَ تضعُ أجْنِحَتَهَا رِضًىٰ لِطالِبِ العِلْمِ) رضا بما يطلب،

(وإِنّ العالِم ليسْتغْفِرُ لهُ منْ فِي السّمواتِ وَالأرْضِ حتّىٰ الحِيتانُ فِي الماءِ،

وفضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كفضْلِ القمرِ ليلة البدر علىٰ سائِرِ الكواكِبِ،

وإِنّ العُلماء ورثةُ الأنْبياءِ، وإِنّ الأنْبياءَ لمْ يُورِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهمًا إِنّما ورّثُوا العِلْم؛ فمنْ أخذه أخذ بِحظٍّ وافِرٍ»).

فهذه خمس فضائل.. خمس جمل في كل جملة فضيلة في طلب العلم.

والحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة شرح هذه الجمل جملة جملة، وقف مع كل جملة وفصّل فيها تفصيلًا نافعًا للغاية، لكنه بدأ بالرحلة لطلب العلم وفضلها وهمة السلف العالية في ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وكان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لقوة رغبتهم في العلم والدِّين والخير يرتحل أحدهم إلىٰ بلد بعيد لطلب حديث واحد يبلغه عن النبي ﷺ.

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلىٰ مصر للقاء رجل من الصحابة بلغه عنه حديث يحدثه

عن النبي ﷺ.

أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه هو الذي نزل النبي عليه الصلاة والسلام عنده لما وصل إلىٰ المدينة، وخصّه بالنزول عليه في بني النجّار كما يُعلم ذلك في السيرة عندما دخل النبي ﷺ المدينة، والصحابي الذي رحل إليه أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في «المسند» للحميدي وفي بعض المصادر أن أبا أيوب خرج إلىٰ عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديثٍ سمعه من رسول الله ﷺ، لم يبق أحدٌ سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة، فقدم عليه وسأل عن منزله وتعانقا، ثم حدَّثه بالحديث وهو حديث «**من ستر مؤمنًا في الدنيا علىٰ خزيه ستره الله يوم القيامة**»، فرحل من أجل هذا الحديث الواحد.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وكذلك فعل جابر بن عبد الله الأنصاري مع كثرة ما سمع من النبي ﷺ من الحديث وروىٰ.

جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رحل مع كثرة ما روىٰ من الأحاديث عن رسول الله ﷺ رحل في مسيرة شهر من أجل حديث واحد، ورِحلته كانت إلىٰ عبد الله بن أُنيس الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فرحل إليه؛ لأنه بلغه أن عنده حديثًا عن رسول الله ﷺ لم يسمعه، فأتاه إلىٰ داره بعد أن رحل إليه شهرًا كاملًا، واعتَنقا عند داره وقال: جئتُ من أجل حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.. حديث واحد ورحل شهرًا كاملًا من أجله.

والحديث في «الأدب المفرد» للبخاري وفي مصادر عديدة، وهو حديث ثابت؛ وهو أن النبي ﷺ قال: «**يحشر الله الناس حفاة عراة غرلًا بهمًا**»، قالوا: وما بهمًا يا رسول الله؟ قال: «**ليس معهم من الدنيا شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب، فيقول: أنا الملك أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مَظلمة حتىٰ أقتصّها منه، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مَظلمة حتىٰ أقتصّها منه**».

وجاء في بعض الروايات أنه قال: «**حتىٰ اللطمة**»، قلنا: يا رسول الله؛ كيف ذلك وهم إنما جاءوا بهمًا؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**» يعني يؤخذ من حسنات الظَّالم وتُعطىٰ للمظلوم، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أُخذ من سيئات المظلوم وطُرحت علىٰ الظالم فطُرِح في النار، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ العافية.

وكان أحدهم يرحل إلىٰ من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيءٍ من العلم لا يجده عنده.

ويكفي في هذا المعنىٰ ما قصَّ الله علينا من قصة موسىٰ عليه السلام وارتحاله مع فتاه، فلو استغنىٰ أحد عن الرحلة في طلب العلم لاستغنىٰ عنها موسىٰ عليه السلام؛ حيث كان الله قد كمّلَهُ وأعطاه التوراة التي كتب له فيها من كل شيء، ومع هذا فلمَّا أخبره الله ﷻ عن الخضر، أن عنده علمًا يختص به سأل السبيل إلىٰ لقائه، ثم سار هو وفتاه إليه كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف].

يعني: سنين عديدة، ثم أخبر أنّه لمَّا لقيه قال له: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف].

وكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه. ومن حديث أُبي بن كعب عن النبي ﷺ في قصة موسىٰ والخضر مخرّجٌ في «الصحيحين» وهو مشهور.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "واللهِ الّذِي لا إِله إِلَّا هُو ما أُنْزِلتْ سُورةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلّا وأنا أعْلمُ أيْن نزلتْ، ولا نزلتْ آيةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلّا وأنا أعْلمُ فِيم أُنْزِلتْ، ولوْ أعْلمُ أحدًا أعْلم مِنِّي بِكِتابِ اللهِ تبْلُغُهُ الإِبِلُ لركِبْتُ إِليْهِ".

وقال أبو الدرداء: "لوْ أعْيتْنِي آيةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ فلمْ أجِد أحدًا يفْتحُها عليّ إِلاّ رجُلٌ بِبرْكِ الْغِمادِ لرحلْتُ إِليْهِ". وبرك الغماد أقصىٰ اليمن.

وخرج مسروق من الكوفة إلىٰ البصرة لرجل يسأله عن آية من كتاب الله فلم يجد عنده فيها علمًا، فأُخْبِر عن رجل من أهل الشام فرجع إلىٰ الكوفة، ثم خرج إلىٰ الشام إلىٰ ذلك الرجل في طلبها.

ورحل رجل من الكوفة إلىٰ الشام إلىٰ أبي الدرداء يستفتيه في يمين حلفها.

هذا الرجل الذي رحل إلىٰ أبي الدرداء يستفتيه عن هذه اليمين؛ وذلك أنَّ أمَّه -أي هذا الرجل- أمرته أن يفارق زوجته، فرحل إلىٰ أبي الدرداء يسأله في ذلك، فقال له أبو الدرداء: ما أنا بالذي آمرك أن تطلق وما أنا بالذي آمرك أن تُمسِك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة»، فأضِع ذلك الباب أو احفظه، قال: فرجع الرجل وقد فارقها.

ورحل سعيد بن جبير من الكوفة إلىٰ ابن عباس بمكة يسأله عن تفسير آية.

وهذا في «الصحيحين» كان سأله عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾

[النساء:٩٣].

ورحل الحسن إلىٰ الكوفة إلىٰ كعب بن عُجْرة يسأله عن قصته في فدية الأذىٰ.

كعب بن عجرة هو الذي نزلت فيه الآية الكريمة في سورة البقرة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] وهي تسمىٰ فدية الأذىٰ، فرحل الحسن إلىٰ الكوفة إلىٰ هذا الصحابي يسأله عن قصته في فدية الأذىٰ، والتي نزل بسببها تلك الآية.

واستقصاء هذا الباب يطول.

اكتفىٰ بهذا القدر، يعني ذكر أمثلة جميلة وعديدة، وأشار إلىٰ أن استقصاء هذا الباب يطول، ومن أراد المزيد فليقرأ في هذا الباب كتابًا للخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سماه «الرّحلة في طلب الحديث»، وما ذكره المصنِّف هنا وغيره كثير جمعه الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكتاب المشار إليه.

وحلف رجلٌ يمينًا فأشكلت علىٰ الفقهاء، فدُلَّ علىٰ بلدٍ فاستبعده فقيل له: إن ذلك البلد قريب علىٰ من أهمَّه دينه.

(قيل له: إن ذلك البلد قريب علىٰ من أهمه دينه)، والقُرب هنا معنوي فالمسافة الطويلة تقصر لمن كانت عنده همة عالية، ومرّت معنا نماذج من همم السلف العالية في طلب العلم والرِّحلة في طلبه.

وفي هذا إشارة إلىٰ أن من أهمَّه أمر دينه كما أهمه أمر دنياه، إذا حدثت له حادثة في دينه لا يجد من يسأله عنها إلا في بلد بعيد؛ فإنه لا يتأخر عن السفر إليه ليستبرئ لدينه، كما أنّه لو عُرض له هناك كسب دنيوي لبادر السفر إليه.

يعني كثير من الناس إذا عرضت له حاجة دنيوية وأدرك أن مثلًا خبيرًا بهذا الأمر في بلد ما يرحل إليه حتىٰ يأخذ عنه تلك الحاجة بشكل دقيق، وأمر الدِّين أعظم وشأنه أرفع.

وفي هذا الحديث أنَّ أبا الدرداء بشّر من أخبره أنّه رحل إليه لطلب الحديث بما سمعه من النبي ﷺ في فضل العلم وطلبه، وهذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

أبو الدرداء في الحديث الذي صنّف ابن رجب هذه الرسالة في شرحه، بشّر هذا الذي قدِم إليه بهذا الحديث، ولهذا هذا الحديث يُبشَّر به طُلَّاب العلم، ومن بدأ في طلب العلم يبشَّر بهذا الحديث يقال له: هنيئًا لك هذا السبيل، فقد قال النبي ﷺ. ويورد له هذا الحديث.

بل علىٰ مر التاريخ خلقٌ من الناس سمعوا هذا الحديث فحرّك فيهم الهمّة في طلبه، مجرَّد سماع، سمعه وتأمَّل في هذه المعاني والفضائل الجليلة التي اشتمل عليها الحديث فتحرَّكت في قلبه همّة عالية، وكيف لا وقد حوىٰ فضائل عظيمة جدًّا جُعِلت لمن سلك هذا السَّبيل.

وقد ازدحم الناس مرة علىٰ باب الحسن البصري لطلب العلم، فأسمعهم ابنه كلامًا، فقال الحسن: "مهلًا يا بني"، ثم تلا هذه الآية.

يعني قد يكون ابنه انزعج من تزاحمهم عند البيت وحرصهم علىٰ ملاقاة الحسن والأخذ عنه، فربما أنه أسمعهم كلامًا لا يناسب في حقِّهم أو في مقامهم فقال له: مهلًا يا بني، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، فمن رحل واغترب عن بلده ومُنيته وبُغيته العلم وهمَّته، فحق من حقوقه أن يقابَل برحابة الصَّدر والبشاشة والترحيب، والشَّد علىٰ يده في هذا الطريق المبارك الذي بدأ يخطو سبيلَه.

وفي كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَّاهُمْ بِطَلَبَةِ الْعِلْمِ وَالْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدِّينِ خَيْرًا".

و(خيرًا) هذه يدخل تحتها كل معاني اللُّطف والرفق، والترحيب والبشاشة وحُسن المعاملة، والشَّد علىٰ أيديهم ونحو ذلك من معاني الخير.

وجاء زر بن حبيش إلىٰ صفوان بن عسّال في طلب العلم قال له: بلغني «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ».

وفي رواية أنه روىٰ له ذلك عن النبيِّ ﷺ.

وهذه فضيلة واحدة في الحديث حرَّكت زر بن حبيش، والحديث فيه خمس فضائل؛ لكن فضيلة واحدة

قال: بلغني «أَنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصنع»، فلما سمع هذه الفضيلة التي ينالها طالب العلم تحرّكت في نفسه الذهاب إلىٰ أهل العلم وطلب العلم عليهم والأخذ عنهم.

وطالب العلم وهو يمشي في طلب العلم ويسلك سبيله لا يرىٰ الملائكة وهي تضع أجنحتها له، وإذا جلس في مجلس العلم لا يرىٰ الملائكة وهي تحف المجلس بأجنحتها رضًا بما يصنع، كما صحّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

فهو وإن كان لا يرىٰ ذلك فهو منه علىٰ يقين لأن هذا كلام الصادق المصدوق ﷺ، فهو وإن كان لا يراهم موقن بذلك وأنها تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، "تضعها" تفرشها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وتحفُّه في مجلس العلم بأجنحتها، وإذا جاءت الملائكة أن لله ملائكة فُضُلًا يبتغون مجالس العلم، فإذا وجدوا مجلس علم قالوا: هلمّوا إلىٰ حاجتكم، يعني بغيتهم هذه المجالس، يفرحون بها ويحفّون أهل تلك المجالس بأجنحتهم.

فالحاصل وإن كان طالب العلم لا يرىٰ شيئًا من ذلك؛ لكنه متيقّن من هذا الأمر؛ لأن الذي أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

ومن أعظم صفات المؤمنين ما ذكره الله في أول سورة البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة] أي: بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله.

وازدحم الناس مرة علىٰ باب ابن المبارك فقال: حُقَّ لَهُمْ مِنْ وِلايةٍ سُرُورُ الأبدِ. يغبطهم بازدحامهم علىٰ طلب العلم؛ لأنّه يؤدي إلىٰ الخلود في النعيم المقيم.

ولهذا تأسف معاذ بن جبل عند موته وبكىٰ علىٰ مفارقة مجالس الذكر فقال: "إِنّما أبكي علىٰ ظمأِ الْهواجِرِ، وقِيامِ ليْلِ الشِّتاءِ، ومُزاحمةِ العُلماءِ بِالرُّكبِ عِنْد حِلقِ الذِّكْرِ".

ما بكىٰ علىٰ شيء من أمور دنياه، وإنما بكىٰ عند موته علىٰ اللذة التي كان يجدها، والفائدة العظيمة التي كان يحصِّلها في مجالس العلم وقيام الليل، فهذا الذي كان يبكي علىٰ فَقده عند موته.

وهذا يدلُّ علىٰ أن مجالس العلم لها لذّة ولها مكانة في قلُوب طُلّاب العلم، ولها ذوق وطعم وحلاوة يجدونها.

وينبغي للعالم أن يرحّب بطلبة العلم ويوصيهم بالعمل، كما قال الحسن لأصحابه وقد دخلوا عليه:

"مرحبًا بِكُمْ وأهْلًا، حَيّاكُمُ اللهُ بِالسّلامِ، وأدخلنا وإيّاكُمْ دار السّلامِ، هذِهِ علانِيةٌ حسنةٌ إِنْ صبرْتُمْ وصدقْتُمْ وأيْقنْتُمْ، لا يكُونَنَّ حظّكُمْ مِنْ هذا الخَيرِ رحِمكُمُ اللهُ أنْ تسْمَعُوهُ بِهذِهِ الْأُذُنِ فيخْرُجُ مِنْ هذِهِ الْأُذُنِ؛ فإِنّهُ مَنْ لم يرَ مُحمّدًا ﷺ فقد رآهُ غادِيًا ورائِحًا لمْ يضعْ إِلىٰ اللهِ لبِنةً علىٰ لبِنةٍ ولا قَصَبَةً عَلَىٰ قَصَبةٍ، وَلَكِنْ رُفِع لهُ علمٌ فشمَّر إِلَيْهِ، الْوحَا الْوحَا.. النّجَا النّجَا.. عَلَامَ تُعرِّجُون؛ أتيْتُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ كأنّكُمْ والْأمْرُ معًا".

وهذا الأثر فيه كما قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ فيه أمران: الترحيب بطالب العلم، ونصحه وحثّه علىٰ العمل بالعلم.

فيُرحَّب به ويلاقىٰ بالتَّرحاب وحسن التحية، والبشاشة وطلاقة الوجه يُرحَّب به، ويوصىٰ في الوقت نفسِه بالعمل بهذا العِلْم، وأن مقصود العلم العمل مثل ما قال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مقصود العلم العمل، فإن أجابه وإلا ارتحل" ما يبقىٰ، ولهذا ينبغي أن يُنبَّه طالب العلم في طلبه للعلم، أن المقصود في الطلب واستماع العلم وحضور مجالسه وقراءة كُتب العلم.. المقصود منه هو أن يعمل بهذا العلم وأن يكون من أهله، ولا يكون من أهله إلا بالعمل به.

ولنشرع الآن في شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه عن النبي ﷺ.

فقوله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الْجنّةِ**»، وفي رواية أخرىٰ: «**سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الجنّةِ**».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الْجنّةِ**».

هذه الآن الجملة الأولىٰ من الحديث، وهي تُعد الفضيلة الأولىٰ من فضائل طلب العلم، وأنه «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الْجنّةِ**»، ويشهد لهذه الفضيلة ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الْجنّةِ**».

والجنّة يكون دخولُها بالعمل ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل]، ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف]، والعمل لا سبيل إليه إلا بالعلم، فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنّة، ولهذا يتأكد الأمر أو الوصية القريبة التي مرّت معنا أكّد عليها ابن رجب وهي: أن

طالب العلم ينبغي أن يوصىٰ بالعمل، فإذا سلك طالب العلم سبيل العلم وهِمّته متجهة للعمل بما يتعلم، صار هذا طريقًا مسهّلًا ميسَّرًا إلىٰ جنات النعيم، جعلنا الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين من أهلها الفائزين بها.

❀❀◈❀❀

سلوك الطريق لالتماس العلم:

يُحتمل أن يُراد به السلوك الحقيقي، وهو المشي بالأقدام إلىٰ مجالس العلم.

ويحتمل أن يشمل ما هو أعم من ذلك من سلوك الطريق المعنوية المؤدّية إلىٰ حصول العلم، مثل حفظه ودراسته، ومطالعته ومذاكرته، والتفهُّم له والتفكر فيه، ونحو ذلك من الطرق التي يتوصَّل بها إلىٰ العلم.

أي أنه يشمل هذا وهذا، فقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا**» يشمل المشي والسير في طلب العلم، ويشمل الجلوس في مجالس العلم، ويشمل السماع للعلم الذي يُلقىٰ وحسن الاستماع له، ويشمل تقييد العلم بالكتابة، ويشمل الجلوس لحفظ العلم وتكراره حتىٰ يثبت ويكون راسخًا.. كل هذا من سلوك طلب العلم، والحديث يشمل ذلك كلَّه، فمن سلك طريقًا يطلُب فيه علمًا بالمشي والجلوس، والسَّماع والكتابة، والحفظ والمذاكرة وغير ذلك «**سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الْجنّةِ**».

❀❀◈❀❀

وأما قوله: «سهّل اللهُ لهُ بِهِ طرِيقًا إِلىٰ الجنّةِ».

فإنه يحتمل أمورًا:

منها: أن يسهل الله لطالبِ العلمِ العلمَ الذي طلبه وسلك طريقه وييسره عليه؛ فإن العلم طريق موصلٌ إلىٰ الجنة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

قال طائفة من السلف في هذه الآية: هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيهِ؟

الآن انتبه إلىٰ فائدة مهمة ينبِّه عليها الحافظ ابن رجب مستفادة من قوله: «**سهّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة**» وهنا ينبّه علىٰ فائدة عظيمة وهي أن طالب العلم إذا سلك طريق العلم سيحظىٰ في سلوكه لطلب العلم أنواعا من التسهيلات، كلها تدخل تحت قوله: «**سهّل الله له**».

فمن هذه التسهيلات أولًا: أن يُسهَّل له الطلب نفسَه، فيجد نفسه التي أقبلت علىٰ العلم سَهُل عليه حفظه، سهُل عليه سماعه، سهُل عليه الصبر علىٰ تلقيه، سهُل عليه فهمه، فيجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ييسر له أنواع من التسهيلات كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر] قال طائفة من

المفسرين أخذًا من هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان عليه؟ هذا معنىٰ الآية.. اطلب العلم والله يعينك ويسر لك هذا السبيل، هذا النوع الأول.

الثاني:

ومنها: أن ييسر الله لطالب العلم العمل بمقتضىٰ ذلك العلم إذا قصد بتعلمه وجه الله، فيجعله الله سببًا لهدايته والانتفاع به والعمل به، وذلك من طرق الجنة الموصلة إليها.

هذا التسهيل الثاني الذي ينال طالب العلم وهو أن يسهَّل له العمل، وينشرح صدره للعمل ويُقبل علىٰ العمل، فهذا أيضًا من التيسير والتسهيل الذي يناله طالب العلم.

ومنها: أن الله تعالىٰ ييسر لطالب العلم الذي يطلبه للعمل به علومًا أخر ينتفع بها؛ فيكون طريقًا موصلًا إلىٰ الجنة، وهذا كما قيل: مَنْ عَمِلِ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وكما يقال: "ثوابُ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا"، وإلىٰ هذا إشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

فمن التمس العلم ليهتدي به زاده الله هدىٰ وعلومًا نافعة، توجب له أعمالًا صالحة، وكل هذه طرق موصلة إلىٰ الجنة.

هذا الآن أيضًا نوع آخر من التسهيل لطالب العلم، فمن التسهيل لطالب العلم أن ييسر الله لطالب العلم الذي يطلب العلم للعمل به علومًا أخرىٰ، فيفتح له أبوابا من العلم ويسهِّل له مجالسا من العلم ينشرح صدره لها، فإذا كان يتعلم وله همّة بالعمل تنفتح له أبواب، ولا يزال هكذا تنفتح له أبواب من العلم يدخل في العلم شيئًا فشيئًا خطوة خطوة حتىٰ يتّسع علمه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، "مَنْ عَمِلِ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" وهذا كما يقال: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، أيضًا مثل هذا تعبير بعض أهل العلم "أن الحسنة تنادي أختها".

وأيضًا يُستدل لهذا بالآيات التي ذكر: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

وأيضًا مثل هذا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورىٰ:٢٣]، والإمام ابن سعدي له كلام جميل يُراجع في تفسير هذه الآية، ذكر شيئًا قريبًا من هذا المعنىٰ.

ومنها: أن الله تعالىٰ قد ييسر لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة، وسلوك الطريق الحسنىٰ المفضي إلىٰ الجنة وهو الصراط وما بعده، وما قبله من الأهوال العظيمة والعقبات الشديدة الشاقة.

هذا أيضًا من التسهيل الذي ينال طالب العلم، وهو أن ينال في الآخرة التسهيل لمجاوزة الصراط الذي يُنصب علىٰ متن جهنم، ويصل إلىٰ الجنة بسلام ويقال له: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر] هذا كله من التسهيل الذي يناله طالب العلم.

وسبب تيسير طريق الجنة علىٰ طالب العلم؛ إذا أراد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ وطلب مرضاته: أن العلم يدل علىٰ الله من أقرب الطرق وأسهلها، فمن سلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلىٰ الله وإلىٰ الجنة من أقرب الطرق وأسهلها، فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة كلها في الدنيا وفي الآخرة.

ومن سلك طريقًا يظنه طريق الجنة بغير علم، فقد سلك أعسر الطرق وأشقها، ولا يوصل إلىٰ المقصود مع عسرة شديدة.

فلا طريق إلىٰ معرفة الله وإلىٰ الوصول إلىٰ رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع، الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه وبه يُهْتدىٰ في ظلمات الجهل والشبه والشكوك، وقد سمىٰ الله كتابه نورًا يهتدىٰ به في الظلمات.

كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة].

أيضًا مثلها قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في آخر الشورىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، فمن الأمور التي يُنبَّه عليها في هذا المقام أن سبب التيسير للجنة والوصول إليها أن العلم هو نورٌ لصاحبه يُبصر من خلاله الطريق الذي يوصل إلىٰ الجنة بسهولة ويسر، ومن سلك للجنة طريقًا ليس قائمًا علىٰ العلم فهو طريقٌ عسِر وفي الوقت نفسه لا يوصل إلىٰ الجنة.

والجنة إنَّما يوصَل إليها بالعلم النافع المستمَدّ من كتاب الله وسنّة نبيِّه ﷺ، أما من لم يكن عمله وسيره للجنّة قائمًا علىٰ العلم النّافع المستمد من الكتاب والسنة فإنَّ عمله مردودٌ عليه؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» ولا يُعرف العمل أهو من أمر الرسول ﷺ أو ليس من أمره إلا بالعلم

الشرعي المستمد من الكتاب والسنة.

وقد ضرب النبي ﷺ مَثَلَ مَنْ حَمَلَ العلم الذي جاء به بالنجوم التي يهتدىٰ بها في الظلمات، كما في «المسند» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَىٰ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا طُمِسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ».

(الهُداة) الذين يدلون الناس في الليل، خاصة في الزمان الأول فإنهم كانوا يعتمدون علىٰ النجم في سيرهم ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام:٩٧].

فالنجوم من فوائدها أنها علاماتٌ يُهتدىٰ بها، فلو طُمِست النجوم في الليل الدامس كيف يعرف الناس الطريق؟ مثله تمامًا لو كان الناس بلا علم، ولو بقي الناس بلا علم وبدون علماء يهدونهم إلىٰ العلم الشَّرعي يكونون كما قال بعض السلف مثل البهائم، لم يميّزهم عن البهائم إلا العلم الشَّرعي النور الذي يدلُّهم علىٰ الحق ويدلهم علىٰ الهدىٰ، ويهديهم إلىٰ صراط الله المستقيم.

وهذا مثل في غاية المطابقة؛ لأنّ طريق التوحيد والعلم بالله تعالىٰ وأحكامه، وثوابه وعقابه لا يُدرَك بالحس، إنما يعرف بالدليل، وقد بين ذلك كله في كتابه وعلىٰ لسان رسوله.

في الآية التي مرّت معنا في سورة الشورىٰ قال الله ﷻ لنبيه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورىٰ]، فالتوحيد والعلم بالله وبأسمائه وصفاته وأحكامه، وجزائه وجنّته وناره، هذه أمور لا تُعرف بالحس ولا بمجرد العقل، لابد من وحي منزَّل تُعرف به هذه الأمور، فلا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالعلم المتلقَّىٰ من مشكاة النبوة التي هي وحي الله ﷻ وتنزيله.

فالعلماء بما أنزل الله علىٰ رسوله هم الأدلّاء الذين يُهتدَىٰ بهم في ظلمات الجهل والشُّبَه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك.

(إذا فُقدوا ضل السالك) أي إذا فقد العلماء يضلّ السالك الطريق، فما يستطيع أن يهتدي إلىٰ الطريق الصحيح إلا بالعلم والأخذ عن حملته ورجاله.

وقد شُبِّه العلماء بالنجوم، والنجوم في السماء فيها ثلاث فوائد: يهتدىٰ بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجومٌ للشياطين الذين يسترقون السَّمع منها.

والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يهتدىٰ في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويُدخلون في الدِّين ما ليس منه من أهل الأهواء، وما دام العلم باقيًا في الأرض فالناس في هدىٰ.

وبقاء العلم بقاء حملته، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنّ الله لا يقْبِضُ العِلْم انْتِزاعًا ينْتزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجالِ، ولكِنْ يُذْهَبُ العِلْم بِذَهابِ العُلماءِ، فإِذا لمْ يبْق عالِمٌ اتّخذ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا فسُئِلُوا فأفْتوْا بِغيْرِ عِلْمٍ فضلُّوا وأضلُّوا».

نعم، بقاء العلم ببقاء حملته ورجاله، وقبض العلم بقبض العلماء؛ لأن العلماء الذين أكرمهم الله ﷻ بتعلم العلم والضلوع فيه والرسوخ، هم علامات ومنارات هدىٰ وأدلّاء للخير وهداة للخلق، فلا يكون قبض العلم بانتزاعه من صدور حملته وإنما يكون قبضه بقبض العلماء.

وخرّج الترمذي من حديث جُبير بن نفير، عن أبي الدرداء قال: كُنّا مَعَ النّبِيّ ﷺ فقال: «هَذَا أوانُ يُخْتلسُ العِلْمُ مِن النّاسِ حتّىٰ لا يقْدِرُوا مِنْهُ علىٰ شيْءٍ»، فقال زِيادُ بْنُ لبِيدٍ: كيْف يُخْتلسُ مِنّا العِلْمُ، وقد قرأْنا القُرْآن؟! فواللهِ لنقْرأنّهُ ولنُقْرِئنّهُ نِساءنا وأبْناءنا، فَقَالَ: "ثَكِلتْك أُمُّك يا زِيادُ، إِنْ كُنْتُ لأعُدُّك مِنْ فُقهاءِ المدِينةِ، هذِهِ التّوْراةُ والإِنْجِيلُ عِنْد اليهُودِ والنّصارىٰ، فَمَاذَا تُغْنِي عنْهُمْ؟! قال جُبيْرٌ بْنُ نفير: فلقِيتُ عُبادة بْن الصّامِتِ فقُلْتُ: ألا تسْمعُ ما يقُولُ أبُو الدّرْداءِ؟ فأخْبرْتُهُ بِالّذِي قال، فقال: صدق أبُو الدّرْداءِ، لَوْ شِئْتُ لأُخْبرْتُك بِأوّلِ عِلْمٍ يُرْفعُ مِن النّاسِ: الخُشُوعُ، يُوشِكُ أنْ تدخُل مسْجِد الجامِعِ فلا ترىٰ فِيهِ خاشِعًا.

نسأل الله العافية، والخشية رأس العلم؛ لأن العلم له ثمار مهمة في باطن الإنسان وهي أهم ما يكون، فالعلم الصحيح وحسن التلقي له يُثمر الخشية، يُثمر الخشوع، يثمر الإخلاص، يثمر صلاح النية؛ لأنه لا يزال وهو يطلب العلم يقف علىٰ ما يسانده ويُعينه علىٰ تحقيق هذه المقاصد والمطالب العظيمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فهذا إذا كان في خطواته في طلب العلم يسلك المسلك الصحيح الذي أوصىٰ به السلف، وهو أن يتعلَّم ليعمل وليجاهد نفسه علىٰ العمل، أما إذا كان يتعلَّم ومن نيته فقط أن يقال: عالم أو أن يستكثر من العلم، أو أن يُعرف بالعلم أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية، فقد تحصل

وقد يقال له ذلك.. قد يقال: حافظ، وقد يقال: قارئ، وقد يقال: عالم؛ لكن هذا لا ينفعه يوم القيامة وإنما الذي ينفعه في تلك الدار الإخلاص والصدق مع الله ومجاهدة النفس علىٰ العمل بالعلم، وإلا فإن القرآن نفسه قد يكون حجة علىٰ صاحبه وحافظه «والقرآن حجة لك أو عليك»، وفي الحديث الآخر قال: «يرفع الله بهذا القرآن أقوام ويضع آخرين».

وخرّجه النسائي من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ بنحوه، وفي حديثه: فذكر ﷺ ضلالة الْيهُودِ والنّصَارَىٰ عَلَىٰ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ كِتابِ اللهِ.

السبب واضح مثلما قال الله: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥]، يعني أهملوها ولم يعملوا بها.

قال جُبيْر: "فَلَقِيتُ شَدَّادَ بْن أَوْسٍ فحدّثْتُهُ بِحدِيثِ عوْفٍ، فقال: صدق، ألا أُخْبِرُك بِأوّلِ ذلِك؛ يُرْفعُ الْخُشُوعُ حتّىٰ لا ترىٰ خاشِعًا".

وخرّج الإمام أحمد من حديث زياد بن لبيد، عن النبي ﷺ أنّه ذكر شيئًا فقال: «ذلك عِنْد أوانِ ذِهابِ الْعِلْمِ» فذكر الحديث، وقال فيه: «أو ليْس الْيهُودُ والنّصارىٰ يقْرؤُون التّوْراة والْإِنْجِيل لا يعْملُون بِشيْءٍ مِمّا فِيها!».

هذا المقصد، فهو عنده التوراة وعنده الإنجيل ولا يعمل بشيء منها ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥] أي: لم يعملوا بها.

ولم يذكر ما بعدها.

ففي هذه الأحاديث أن ذهاب العلم بذهاب العمل، وأن الصحابة فسروا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع.

ذهاب العلم بذهاب العمل، وأعظم ما يكون في باب العمل عمل القلب.. في الدرجة الأولىٰ عمل القلب: الخشوع والإخلاص والخشية، وغير ذلك من الأعمال القلبية.

ومن المعلوم أن صلاح الباطن الذي هو القلب صلاحٌ للظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

وكذا روي عن حذيفة: "إنّ أوّل ما يُرْفعُ مِن العِلْمِ الخُشُوعُ".

فإن العلم علمان كما قال الحسن: "عِلْمُ اللِّسانِ، فذاك حُجّةُ اللهِ علىٰ ابْنِ آدمِ، وعِلْمٌ فِي الْقلْبِ فذاك الْعِلْمُ النافِعُ".

علم القلب المراد به الخشوع، الخشية، الخوف، الرجاء، المحبة، الإخلاص.

٭٭٭

وروي عن الحسن مرسلًا عن النبي ﷺ.

لم يثبت مرفوعًا وإنما هو من كلام الحسن.

٭٭٭

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إنّ أقْوامًا يقْرءُون الْقُرْآن لا يُجاوِزُ تراقِيهُمْ، ولكِنْ إذا وقع فِي الْقلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نفع".

هذا كلام عظيم جدًّا للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود جدير بأن نتأمله، وهو في «صحيح مسلم» كما ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، يقول: (إنّ أقْوامًا يقْرؤُون الْقُرْآن لا يُجاوِزُ تراقِيهُمْ) أي لا يجاوز مخارج الصوت، يعني يكون يعتني فقط بمخارج الصوت عناية دقيقة، يضبط المخارج كل حرف يعطيه حقه من مخرجه بإخراج صحيح، بطريقة صحيحة لكن قلبه لا يفقه شيئا، يعني كل عنايته وكل همته متجهة من الترقوة وما فوق، لأن مخارج الصوت أقصاها الحروف الجوفية فهي عند الترقوة، فهو معتني بالقرآن من الترقوة وما فوق.. الحنجرة فما فوق معتني بذلك وضابط للقرآن قراءة وترتيلًا، لكن فقهًا وفهمًا وعملًا ليس له حظٌ من ذلك.

يقول: "إنّ أقْوامًا يقْرءُون الْقُرْآن لا يُجاوِزُ تراقِيهُمْ، ولكِنْ إذا وقع فِي الْقلْبِ وَرَسَخَ فِيهِ نفع"، فينفع القرآن قارئه إذا وقع ورسخ في القلب، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [محمد:٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

والنبي ﷺ لما وصف الخوارج للصحابة قال لهم: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم» أي أنه لا يجاوز الحناجر، بمعنىٰ أن القلب ليس له نصيب، الفقه الذي في القلب لا نصيب لهم منه، نصيبهم منه القراءة والتلاوة فقط.

٭٭٭

فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالىٰ وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه

ومحبته، ومتىٰ سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنّه كان يقول: «**إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»، وهذا يدل علىٰ أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع.

يعني هو علم في نفسه نافع، لكنه غير نافع أي لصاحبه لأن صاحبه لم ينتفع به، ولهذا من الدعاء: اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني. فقد يكون العلم في نفسه علمًا نافعًا لكن صاحبه غير منتفع به، فقوله: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**» هذا يشمل التعوذ من أمرين:

يشمل التعوذ من علم في نفسه غير نافع.

ويشمل التعوذ من علم لا ينتفع به صاحبه.

❁❁◊❁❁

وروي عنه ﷺ «أَنّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ عِلْمًا نَافِعًا».

وفي حديث آخر، قال: «سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ».

وأما العلم الذي علىٰ اللسان فهو حجة الله علىٰ ابن آدم، كما قال النبي ﷺ: «**والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيكَ**».

أي الذي في اللسان فقط هذا حجة الله علىٰ بني آدم، ولهذا قال نبينا ﷺ في الحديث وهو في «صحيح مسلم» قال: «**والقرآن حجّةٌ لك أو عليك**» ومعنىٰ (حجة لك) أي إن عملت به و(عليك) إن لم تعمل به.

ولا يكون المرء من أهل القرآن إلا إذا عمل بالقرآن، أما مجرد الحفظ له والإتقان لترتيله وتجويده وما إلىٰ ذلك لا يكون بذلك من أهل القرآن، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين يعملون به»، فلا يكون المرء من أهل القرآن إلا إذا عمل بالقرآن، أما إذا حفظ القرآن ولم يعمل به لا يكون بذلك من أهله.

❁❁◊❁❁

فإذا ذهب من الناس العلم الباطن بقي الظاهر علىٰ الألسنة حجة، ثم يذهب هذا العلم الذي هو حجة بذهاب حملته، ولا يبقىٰ من الدِّين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، فيبقىٰ القرآن في المصاحف ثم يُسرىٰ به في آخر الزمان فلا يبقىٰ منه في المصاحف ولا في القلوب شيء.

وهذا معنىٰ قول السلف "منه بدأ وإليه يعود"، ومعنىٰ قولهم: "إليه يعود" أي يُسرىٰ به في آخر الزمان،

فيصبح الناس لا يجدون في المصاحف قرآنًا.

ومن هنا قَسَّمَ من قَسَّمَ من العُلَمَاءِ العلم إلىٰ باطن وظاهر، فالباطن: ما باشر القلوب فأثمر لها الخشية والخشوع، والتعظيم والإجلال، والمحبة والأُنس والشوق.

والظاهر: ما كان علىٰ اللسان، فبه تقوم حجة الله علىٰ عباده.

هذا مثل ما تقدم معنا في كلام الحسن قال: "العلم علمان: علم اللسان وعلم القلب".

وكتب وهب بن منبِّه إلىٰ مكحول: "إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَصَبْتَ بِمَا ظَهَرَ لَكَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ شَرَفًا فَاطْلُبْ بِمَا بَطَنَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ مَحَبَّةً وَزُلْفَىٰ".

يعني أن تنال محبة الله والزُّلفىٰ لديه والمنزلة العالية، اطلب ذلك، اتجه بهمتك إلىٰ هذا الأمر.

وفي رواية أخرىٰ أنّه كتب إليه: "إِنّك قد بلغْت بِظَاهِرِ عِلْمِكَ عِنْدَ النّاسِ منْزِلةً وشَرَفًا، فَاطْلُبْ بِباطِنِ عِلْمِك عِنْد اللهِ مَنْزِلةً وزُلْفَىٰ، واعْلمْ أن إِحْدىٰ الْمنْزِلتيْنِ تَمْنعُ من الْأُخْرىٰ".

أي أنه إذا اتجه إلىٰ المنزلة التي عند الناس والمكانة، والشهرة والصيت.. وإلىٰ آخره لا يحصل الأخرىٰ، لكن سبحان الله إذا اتجه للأخرىٰ وهي المنزلة عند الله ﷻ يحصّل خير الدنيا والآخرة، فيحصّل في الدنيا الذِّكر الحسن ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء] ويحصّل أيضًا الرِّفعة والمنزلة العليَّة عند الله ﷻ.

فأشار وهب بعلم الظاهر إلىٰ علم الفتاوىٰ والأحكام، والحلال والحرام، والقصص والوعظ وهو ما يظهر علىٰ اللسان.

وهذا العلم يوجب لصاحبه محبة الناس له، وتقدُّمه عندهم، فحذره من الوقوف عند ذلك، والركون إليه والالتفات إلىٰ تعظيم النَّاس ومحبتهم؛ فإن من وقف مع ذلك فقد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلىٰ الخلق عن الحق.

وأشار بعلم الباطن إلىٰ العلم الذي يباشر القلوب، فيحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأمره أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزلفىٰ لديه.

وهذا هو الذي أشير إليه فيما تقدم "إصلاح الباطن"، إصلاح الباطن بالخشية، بالخشوع، بالمحبة، بالإخلاص، طلب الزلفىٰ عند الله ﷻ، هذه المعاني كلها تتعلق بالقلب وإصلاحه وإقامته علىٰ الطريق القوام السداد.

وكان كثير من السلف كسفيان الثوري وغيره يُقسِّمُون العلماء ثلاثة أقسام: عَالِمٌ بِاللهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ.

ويشيرون بذلك إلىٰ من جمع بين هذين العِلْمين المشار إليهما الظاهر والباطن، وهؤلاء أشرف العلماء، وهم الممدوحون في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] إلىٰ قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال كثير من السلف: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةَ الرِّوايةِ ولَكِنّ الْعِلْمَ الْخَشْيةُ.

وقال بعضهم: كفىٰ بِخشْيةِ اللهِ عِلْمًا، وكفىٰ بِالاغْتِرارِ بِاللهِ جهْلًا.

ويقولون أيضًا: عَالِمٌ بِاللهِ لَيْسَ بِعالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ.

هذا القسم الثاني، فهم يقسّمونهم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: عالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله.

الثاني: عالمٌ بالله ليس بعالم بأمر الله.

وهم أصحاب العلم الباطن الذي يخشون الله، وليس لهم اتساع في العلم الظاهر.

هذا قسم (عالمٌ بالله ليس بعالم بأمر الله) يعني يخشون الله، في قلبه خشية لكن ليس عنده علم.

والخشية التي بدون علم والخشوع الذي بدون علم قد يوقع الإنسان في أعمال هي من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا بعض أهل البدع قد يخشعون خشوعًا قلبيًّا ويبكون بكاءً صادقًا، لكن علىٰ بدعة وعلىٰ أعمال محدَثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

ويقولون أيضًا: عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ.

(عالم بأمر الله) هذا القسم الثالث أي: أنه عالم بحدوده وشرعه وأحكامه، ولكن "ليس عالم بالله" ليس في قلبه خوف أو خشية من الله.

وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العالم الباطن، وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف.

وكان بعضهم يقول: هَذَا هُوَ العَالِمُ الفَاجِرُ.

وهؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلىٰ قلوبهم ولا شموا له رائحة، غلبت عليهم الغفلة والقسوة، والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا، ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها.

وقد مُنِعوا إحسان الظن بمن وصل العلم النافع إلىٰ قلوبهم، فلا يحبونهم ولا يجالسونهم، وربما ذموهم وقالوا: ليسوا بعلماء، وهذا من خداع الشيطان وغروره، ليحرمهم الوصول إلىٰ العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله، وسلف الأمة وأئمتها.

ولهذا كان علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة، ويسعون في أذاهم جهدهم، كما سعوا في أذىٰ سعيد بن المسيب والحسن وسفيان ومالك وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين؛ وذلك لأن علماء الآخرة خلفاء الرسل، وعلماء السوء فيهم شبه من اليهود، وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس، وهم أشد الناس عداوة وحسدًا للمؤمنين، ولشدة محبتهم للدنيا لا يعظّمون علمًا ولا دينًا، وإنما يعظّمون المال والجاه والتقدم عند الملوك.

كما قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطاة: "إِنَّ لَكَ دِينًا وإِنَّ لَكَ فِقْهًا".

فقال الحجاج: "أَفَلَا تَقُولُ إِنَّ لَكَ شَرَفًا وإِنَّ لَكَ قَدْرًا".

فقال الوزير: "وَاللهِ إِنَّكَ لَتُصَغِّرُ مَا عَظَّمَ اللهُ وَتُعَظِّمُ مَا صَغَّرَ اللهُ".

وكثير ممن يدعي الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر، الذي هو الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ويطعن في أهله ويقولون: هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة، والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها.

وربما انحل بعضهم عن التكاليف وادعىٰ أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة له إليها، وأنها حجاب له، وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين "وصلوا ولكن إلىٰ سَقَرَ".

هو يتحدَّث هنا عن أصحاب الطرق الضالة الذين يحقّرون من شأن العلم وأحكام الشَّريعة، والأوامر والنواهي والتفقُّه في دين الله، حتىٰ إن بعضهم يعتقد أن طلب العلم الشرعي يقطع الطريق، وأن التفقه في

الدِّين يعيق السائر.. هكذا يعتقدون.

ويزعمون أن الوصول إنما هو بالعلم الباطن الذي يزعمون أنهم أهله وأربابه، ولهذا بعضهم يقول عن نفسه أنه وصل، ويقولون: الواصل تنقطع عنه التكاليف، يعني لا يكون مأمورًا لا بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة ولا غير ذلك من الأعمال، ويوصف عندهم بالواصل، الواصل أي من تسقط عنه التكاليف ويستدلون علىٰ ذلك بنصوص ويحملونها علىٰ غير معناها ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٩] يقولون: حتىٰ تصل إلىٰ درجة الوصول بعد ذلك توقف عن العبادة، واليقين الموت ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران] فاليقين هو الموت، يعني اعبد الله إلىٰ أن تموت هذا معنىٰ الآية.. استمر علىٰ العبادة.

هم يقولون: اليقين الوصول إلىٰ هذه الدرجة، فكان أهل العلم يقولون: نعم وصل.. علىٰ المعنىٰ الذي يقوله هؤلاء أن من وصل تنقطع عنه التكاليف يقولون: نعم وصل، ولكن إلىٰ سقر يعني إلىٰ النار؛ لأن ترك العمل وترك العبادة يفضي بصاحبه إلىٰ النار.

وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتىٰ أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يُتَلَقَّىٰ من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقىٰ من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساؤوا الظن بالشريعة الكاملة؛ حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية، والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا.

وهذا ضلال آخر عند هؤلاء أصحاب الطرق الضالة حينما قلّلوا من شأن علوم الشريعة من جهة، وعظّموا من شأن علم الباطن الذي يزعمون أنهم أربابه، وزعموا أن هذا العلم لا يتلقىٰ من النصوص وإنما يُتلقىٰ من الإلهامات والكشوفات، والخواطر والمنامات وأشياء من هذا القبيل ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة].

فظهر بهذا أن أكمل العلماء وأفضلهم: العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما -أي علم الظاهر وعلم الباطن- معًا من الوحيين -أعني: الكتاب والسنة- وعرضوا كلام الناس في العلمين معًا علىٰ ما جاء في الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه وما خالف ردوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقًّا، وهؤلاء كثير في الصحابة، كالخلفاء الأربعة، ومعاذ، وأبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود وابن عمر، وابن عباس وغيرهم.

وكذلك فيمن بعدهم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والنخعي، ويحيىٰ بن أبي كثير.

وفيمن بعدهم كالثوري، والأوزاعي، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين.

وقد سماهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العلماء الربانيين، يشير إلىٰ أنّهم الربانيون الممدوحون في غير موضع من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

فقال: "النّاسُ ثلاثةٌ: عالِمٌ ربّانِيٌّ، ومُتعلِّمٌ علىٰ سبِيلِ نجاةٍ، وَهَمَجٌ رِعاعٌ...".

ثم ذكر كلامًا طويلًا وصف فيه علماء السوء والعلماء الربانيين، وقد شرحناه في غير هذا الموضع.

والمقصود ها هنا: أن التماس العلم سبب موصل إلىٰ الجنة، وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: «إذا مررْتُمْ بِرِياضِ الجنّةِ فارْتعُوا»، قالُوا: وما رِياضُ الجنّةِ؟! قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ».

يعني مجالس العمل التي يُبيّن فيها الحلال والحرام، وتوضح فيها الأحكام، وأخذًا من هذا الحديث تجد عدد من العلماء سموا كتبهم باسم فيه ارتباط بهذا المعنىٰ الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام، مثل «رياض الصالحين»، مثل «الروض الأنف»، مثل «الرياض الناضرة» للشيخ عبد الرحمن السعدي، «الروض المربع».. كتب كثيرة بهذا الاسم؛ لأن العلم روضة يجد فيها طالب العلم من أصناف الزهور والأشجار والثمار، والقطوف الدانية والأُكُل اللذيذ والجنىٰ الطيب، فلا يزال يتذوق من ذلك ثمرة تلو أخرىٰ يجنيها من مجالس العلم وكتبه.

وكان ابن مسعود إذا ذكر هذا الكلام يقول: "أَمَا إنِّي لَا أعْنِي القُصَّاصَ ولكِنْ حِلَقَ الفِقْهِ".

والقصاص الذين لا شأن لهم بعلم الشريعة وإنما يعظون الناس بالقصص والحكايات المختلقة، وقد قال الإمام أحمد: أكذب الناس القُصّاص، يعني لأنهم ينسجون قصصا يريدون بها التأثير علىٰ الناس، فيختلقون قصصا وحكايات وأشياء من هذا القبيل، فابن مسعود يقول: (لا أعني القُصّاص ولكن أعني حِلق الفقه) يعني التي يبيَّن فيها الحلال والحرام ودين الله بالنصوص والأدلة، بكلام الله وكلام رسوله

صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ورُوي عن أنس معناه أيضًا.

وقال عطاء الخراساني: "مجَالِسُ الذِّكْرِ مجَالِسُ الحَلالِ والحَرَامِ، كَيفَ تَشْتَرِي وَتَبِيعُ، وتُصَلِّي وتَصُومُ، وتنْكِحُ وتُطلِّقُ، وتَحُجُّ وأشْباهُ هذا".

هذا كلام عظيم جدًّا لعطاء الخراساني ما معنىٰ قول النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذكر» ما المراد بحلق الذكر، وما المراد بمجالس الذكر؟

قال: (مجَالِسُ الذِّكْرِ مجَالِسُ الحَلالِ والحَرَامِ، كَيفَ تَشْتَرِي، كَيفَ تَبِيعُ، كَيفَ تُصَلِّي، كَيفَ تَصُومُ، كَيفَ تنْكِحُ، كَيفَ تُطلِّقُ، كَيفَ تَحُجُّ.. وأشْباهُ ذلك) هذه مجالس الذكر التي يتعلم فيها المرء دينه، ويتفقه في دين الله ﷻ، من خلال كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: دَرْسُ الفِقْهِ صَلاةٌ.

أي: أنهم كانوا يعدون درس الفقه عبادة وهو من أجل العبادة؛ لأن العبادة أصلًا لا تُعرف إلا بالفقه.

وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتىٰ شاب فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ، فَغَضِبَ أَبُو السُّوارِ، وَقَالَ: وَيْحَكَ، فِي أَيّ شَيء كُنَّا إِذًا؟!

هذا كانوا في مجلس علم ويبيّن لهم الأحكام والحلال والحرام، فشاب متحمِّس في المجلس قال: قولوا: سبحان الله، يعني كأن القوم كانوا في غفلة.. فقال: سبّحوا قولوا: سبحان الله، قولوا: الحمد لله، فقال له أبو السوار رَحِمَهُ اللهُ: (ويحك، في أي شيء كنّا إذًا؟!) مجالس العلم الحلال والحرام هي ذكر لله، من أعظم الذكر لله عَزَّوَجَلَّ أن يُفقَّه الناس في دينهم وفي عبادتهم لربهم، أن تُبيَّن لهم الأحكام الحلال والحرام.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه؛ بل تشمل ما ذكر فيه أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع

من ذلك؛ لأنّ معرفة الحلال والحرام واجبة في الجملة علىٰ كل مسلم، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذكر الله باللسان، فإن أكثره يكون تطوعًا، وقد يكون واجبًا كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وأما معرفة ما أمر الله به ونهىٰ عنه، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه وينهىٰ عنه فيجب علىٰ كل من احتاج إلىٰ شيء من ذلك أن يتعلمه.

ولهذا روي: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ".

فإنه يجب علىٰ كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه في دينه، كالطهارة والصلاة والصيام.

ويجب علىٰ كل من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاة ونفقة، وحج وجهاد، وكذلك يجب علىٰ كل من يبيع ويشتري أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَا يَبِيعُ فِي سُوقِنَا إِلا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ" خرجه الترمذي.

إذا لم يتفقه في الدين يعني في الأحكام الشرعية التي تتعلق بالبيوع، فإنه سيدخل ويُدخِل غيره في تعاملات وبيوع محرمة، ولهذا من **اللطائف المفيدة** أن محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة قيل له رَحِمَهُ اللَّهُ: ألا تؤلف لنا كتابًا في الورع، قال: قد ألّفت كتابًا في البيوع.

يقصد إذا كنت تريد أن تكون ورعا تفقه في المعاملات الشرعية كيف تبيع كيف تشتري، ما الحلال ما الحرام تكون ورِعًا ورَعًا صحيحًا؛ لكن إذا كان الإنسان عنده ورع ولكن بدون علم فقد يمنع شيئًا أحلَّه الله، قد يحرّم حلالًا، قد يكره مستحبًّا أو جائزًا.. ويقع في أشياء من هذا القبيل، فقالوا: ألّف لنا كتابًا في الورع، قال: ألّفت كتاب في البيوع يعني يكفيكم، فإذا عرفتم البيوع وطرائقها والصحيح منها والفاسد وما إلىٰ ذلك يكون الورع بذلك، ومقصوده أنه بدون علم شرعي لا يكون ورعا صحيحا.

ولهذا أيضًا قيل قديمًا: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟ كيف يتقي وكيف يتورع الذي لا يدري ماذا يتقي وما يتورع منه.

ويروىٰ بإسناد فيه ضعف عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "الفِقْهُ قَبْلَ التِّجَارَةِ، إِنَّهُ مَنْ اتَّجَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّهَ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا ثُمَّ ارْتَطَمَ".

أي ثم هلك، يقع في الربا ثم يهلك.

وسُئل ابن المبارك: ما الذي يجب علىٰ الناس من تعلم العلم؟ قال: ألا يقدم الرجل علىٰ شيء إلا بعلم

يسأل ويتعلم، فهذا الذي يجب علىٰ الناس من تعلم العلم، ثم فسّره: "لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيهِ وَاجِبٌ أَنْ يَتَعَلَّمَ الزَّكَاةَ، فَإِذَا كَانَ لَهُ مَائَتَا دِرْهَمٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَمْ يُخْرِجُ وَمَتَىٰ يُخْرِجُ وَأَيْنَ يَضَعَ، وَسَائِرُ الأَشْيَاءِ عَلَىٰ هَذَا".

لابد إذا كان عنده مال وبلغ النصاب وجب عليه أن يتعلم الزكاة، لأن الزكاة فريضة وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ، فإذا بلغ ماله النصاب وجب عليه أن يفقه ماذا يجب عليه في المال، ومتىٰ يجب، وأين يضع المال.. كل ذلك لا بد أن يتعلمه في ضوء الأدلة، أما إذا كان فقير وليس عنده مال فهذا العمل ليس بواجب عليه لأنه ليس عنده مالًا يبلغ القدر الواجب الذي لا يتم الواجب إلا به وهو تعلم ما أوجبه الله ﷻ عليه من أحكام تتعلَّق بالزكاة، فإذا وجبت عليه الزكاة وجب عليه تعلم الأحكام التي تتعلق بها.

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الرجل مَا يَجِبُ عَلَيهِ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ؟ فقال: "مَا يُقِيمُ بِهِ الصَّلواتِ وَأَمَرَ دِينِه مِنَ الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ، وَذَكَرَ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ. وقال: يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ذَلِكَ".

وقال أيضًا: "الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنسَانِ مِنَ العِلْمِ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي صَلَاتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ".

العلم فرض عيني وفرض كفائي، ومن العلم ما هو علم مستحب ليس بواجب، ويختلف هذا باختلاف العلم نفسه واختلاف أيضًا حال المكلَّف، والذي لا بد منه من العلم هو ما يقيم به واجبات الدين من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام.

واعلم أن علم الحلال والحرام علمٌ شريف، ومنه ما تَعَلَّمُهُ فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

وقد نصّ العلماء علىٰ أن تَعَلَّمَهُ أفضل من نوافل العبادات، منهم أحمد وإسحاق. وكان أئمة السلف يتوقّون الكلام فيه تورعًا؛ لأنَّ المتكلِّم فيه مخبر عن الله بأمره ونهيه، مُبلِّغ عنه شرعه ودينه.

وكان ابن سيرين إذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَدَّلَ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَيْسَ بالَّذِي كَانَ.

أحيانًا بعض المسائل العظيمة من مسائل الحلال والحرام تُذْكَر في بعض المجالس في عوام وتجد بعضهم يرفع صوته: لا هذا حلال، والآخر يقول: لا هذا حرام، وكل يعطي من عنده، وكان السلف لما يسأل عن مسألة في الحلال والحرام يتغير لونه خوفا؛ لأنه موقّع ومُخْبِر عن الله، فعندما يقول هذا حلال

يعني أحلّه الله، حرام أي حرّمه الله ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦]

وقال عطاء بن السائب: "أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُسْأَلُ عَنِ الشَّيءِ فَيَتَكَلَّمُ وَإِنَّه لَيُرْعَدُ" -أي خائف-.

وروي عن مالك أنّه كان إذا سئل عن مسألة، كأنّه بين الجنة والنار.

أي أنه خائف بأن يقول علىٰ الله أو أن يخطئ في بيان دين الله أو أن يحكم بشيء ليس هو حكم الله، يكون خائفًا مشفقًا، وهذا الخوف منجاة لصاحبه بخلاف الذي يتكلم ولا ورع عنده ولا خوف ولا مبالاة.

وكان الإمام أحمد شديد التورع في إطلاق لفظ الحرام والحلال أو دعوىٰ النسخ، ونحو ذلك مما يجسر عليه غيره كثيرًا، وأكثر أجوبته: أرجو وأخشىٰ، أو أحب إلي، ونحو ذلك.

وكان هو ومالك وغيرهما يقولون كثيرًا: لا ندري.

وكان أحمد يقول ذلك في مسألة يُذْكَر للسلف فيها أقوالًا عديدة، ويريد بقوله "لا أدري" أي الراجح المفتىٰ به من ذلك.

ومن مجالس الذكر أيضًا: مجالس العلم التي يُذْكَر فيها تفسير كتاب الله أو يروىٰ فيها سنة رسول الله ﷺ.

فإن كانت رواية الحديث مع تفسير معانيه، فذلك أكمل وأفضل من مجرد رواية ألفاظه، ويدخل في الفقه في الدِّين كل علم مستنبط من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، سواء كان من علوم الإسلام التي هي الأعمال الظاهرة والأقوال، أو من علوم الإيمان التي هي الاعتقادات الباطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة، أو من علوم الإحسان التي هي علوم المراقبة والمشاهدة بالقلب، ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والرجاء والإنابة، والصبر والرضا، وغير ذلك من المقامات.

وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبرئيل له عنه: دينًا.

أيضًا في الحديث لما قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، فالفقه في الدين يتناول الفقه الأكبر الذي هو العقيدة، ويتناول الأحكام ويتناول أعمال القلوب، فالفقه في ذلك كله هو من الفقه في الدين.

فالفقه فيه من الفقه في الدين، ومجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي من رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض.

وقد دخل بعض السلف مسجد البصرة فرأىٰ فيه حلقتين في إحداهما قاص وفي الأخرىٰ فقيه يعلم الفقه، فصلىٰ ركعتين واستخار الله في الجلوس إلىٰ إحداهما، فنعس فرأىٰ في نومه قائلًا يقول له: أو قد سويت بينهما؟! إن شئت أريناك مقعد جبرائيل عليه السلام من فلان يعني: الفقيه الذي يُعلّم العلم.

وسنذكر فيما بعد النصوص الدالة علىٰ فضل العلم علىٰ أنواع العبادات من الذكر وغيره إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه المنامات لا تُذْكر علىٰ أنها عمدة في الباب وإنما يُستأنس بذكرها.

وكان زيد بن أسلم من جلّة علماء المدينة، وكان له مجلس في المسجد يذكر فيه التفسير والحديث والفقه وغير ذلك، فجاء إليه رجل فقال له: إني رأيت بعض أهل السماء وهو يقول لأهل هذا المجلس: "هَؤلَاءِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ آمِنُونَ، ثُمَّ أَرَاهُ أَنْزَلَ عَلَىٰ أَهْلِ المَجْلِسِ حُوتًا طَرِيًّا وَوَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي رَأَيْتُ النَّبِي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما خرجوا من هذا الباب والنبي ﷺ يقول: "انْطَلِقُوا بِنَا إِلَىٰ زَيدٍ نُجَالِسُهُ وَنَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ. فجاء النبيُّ ﷺ حتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ جَنْبِكَ فَأَخَذَ بِيَدِكَ، فَلَمْ يَبْقَ زَيدٌ بَعْدَ هذِهِ الرُّؤيَا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ".

أي أن هذه رؤيا منامية، والرؤىٰ المنامية هي مبشِّرات، حتىٰ إن النبي ﷺ قال لما سأله عبادة بن الصامت عن قول الله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٦٤] قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرىٰ له»، فالرؤىٰ الصالحة هي من المبشِّرات.

ومع ما ذكرنا من تفضيل العلم علىٰ القصص؛ فالعالم لا يستغني أحيانًا عن موعظة الناس والقصص عليهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، بالتذكير بالله وأيامه، فإن القرآن يشتمل علىٰ ذلك كله، والفقيه العالم حقًّا هو من فهم كتاب الله واتبع ما فيه.

كما قال عليّ رضي الله عنه: "الفَقِيهُ حقًّا مَنْ لَا يُقَنِّط النَّاس مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَا يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَا

يَدَعُ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ".

وقد كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ أَحْيَانًا؛ خشية السَّآمَةِ عَلَيْهِمْ".

نكتفي بهذا، سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك، أشهد ألا إِلهَ إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

نواصل القراءة في كتاب «شرح حديث أبي الدرداء» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال العلامة الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم»:

قوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**».

وخرّج ابن ماجه من حديث زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال، فقال: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَطْلُبُ العِلْمَ. قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وخرّجه الترمذي وغيره موقوفًا علىٰ صفوان.

أي أنّ هذا شاهدٌ لحديث أبي الدّرداء، شاهد لهذه الجملة الثانية «**وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وما من شك أن هذه فضيلة عظيمة من الفضائل التي ينالها طالب العلم، أنَّ ملائكة الله ﷻ تضع أجنحتها لطالب العلم (**رضًا بما يصنع**) أي: رضًا بهذا الصنيع الذي هو طلب العلم.

وقد اختلف الناس في تأويل وضع الملائكة أجنحتها:

فمنهم من حمله علىٰ ظاهره، وأن المراد فرش الأجنحة وبسطها لطلَّاب العلم لتحملهم عليها إلىٰ مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم؛ إعانةً لهم علىٰ الطلب وتيسيره عليهم.

وقد سمع هذا الحديث بعض الملحدين، فقال لطلبة العلم: "ارفعوا أرجلَكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها" يستهزئ بذلك، فما زال من موضعه حتىٰ جفّت رجلاه وسقط.

أي أنه لم يتحرك من موضعه (حتىٰ جفّت رجلاه) أي من حركة الدم فيها يبست فسقط من موضعه، وهذه عقوبة معجّلة وقد يسلم منها المرء؛ لكنه يبوء بسخط الله لأنه لا يستهزئ بشيء من أحاديث رسول الله ﷺ ولا يستهزئ إلا ضال منحرف العقيدة؛ لأن أحاديث رسول الله ﷺ كلها حق وكلها معظّمة، وكلها

متلقاة بالتصديق والقبول.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وروي عن آخر قال: لأكسرن أجنحة الملائكة. فصنع له نعلًا طرقها بمسامير كثيرة، فمشىٰ بها إلىٰ مجلس العلم فجفّت رجلاه ووقعت فيهما الأكلة.

أي أنه حصَلت له هذه العقوبة المعجّلة للسُّخرية التي وقعت منه بحديث رسول الله ﷺ.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

ومنهم من فسَّر وضع الملائكة أجنحتها بالتواضع لهم، والخضوع لطلاب العلم كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء] وفي هذا نظر؛ لأنّ للملائكة أجنحة حقيقة بخلاف البشر.

ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحفُّ بأجنحتها مجالس الذكر إلىٰ السماء كما جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وورد مثله في بعض ألفاظ حديث صفوان بن عسال مرفوعًا: «**إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وَتَظلّه بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغُوا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ**».

ولعل هذا القول أشبه، والله أعلم.

الحديث علىٰ ظاهره كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم**» وهو أمر غيبي لا يخاض فيه بكيفية؛ لكنه حقٌّ وكما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام.

ووضع الملائكة أجنحتها هو وضعٌ حقيقي تضع أجنحتها تواضعًا له وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث عظيم، ولما هو مشتغلٌ به من طلبٍ للعلم الذي هو سبيل رفعة لصاحبه في دنياه وأُخراه، فالملائكة تضع أجنحتها حقيقةً تواضعًا له وتوقيرًا وإكرامًا له من أجل هذا العلم الذي هو سالكٌ في سبيله.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

قوله ﷺ: «وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ».

قد أخبر الله في كتابه باستغفار ملائكة السماء للمؤمنين عمومًا بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورىٰ:٥] فهذا للمؤمنين عمومًا.

فأمّا العلماء فيستغفر لهم أهل السماء وأهل الأرض حتىٰ الحيتان في البحر، وخرّج الترمذي من حديث

أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّىٰ الحُوتَ فِي البَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ» وصححه الترمذي.

وخرّج الطبراني من حديث جابر، عن النبي ﷺ قال: «مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ».

ويروىٰ من حديث البراء بن عازب، عن النبي ﷺ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، يُحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الحِيتَانُ فِي البَحْرِ إِذَا مَاتُوا إِلَىٰ يَومِ الْقِيَامَةِ».

أي أن هذه كلها شواهد تشهد لما جاء في حديث أبي الدرداء من فضيلة عظيمة لطالب العلم، أن العالم ليستغفر له من في السَّمٰوات والأرض، حتىٰ الحيتان في الماء، يعني كلها تستغفر له وتسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له.

وهذه لا شك فضيلة عظيمة جدًّا، الحيتان التي في الماء كم عددها؟ كلها تستغفر لطالب العلم، انظر هذه الفضيلة وعظّم حديث رسول الله ﷺ، وانظر هذه المخلوقات الكثيرة حتىٰ السَّمٰوات والأرض، كلها تستغفر لطالب العلم تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغفر له، وهذا يدل علىٰ أن طريق العلم طريق مبارك.

سبحان الله! هذا الطالب يدخل في العلم يطلب العلم ثم الكون كله يتحرك من حوله دعاءً له.. الكون كله السَّمٰوات والأرض والحيتان تستغفر له، تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغفر له، فهذا يدل علىٰ أن هذا الطريق الذي سلكه طالب العلم طريقٌ مباركة يحفها الخير وتتوالىٰ فيها البركات وترتفع بها الدَّرجات ويتحقق بها الغفران للذُّنوب والخطيئات، فهذا كلُّه مما يُعلي الهمة ويستنهض العزيمة للحرص علىٰ العلم والعناية به.

ورود الاستغفار أيضًا لطالب العلم. ففي «مسند الإمام أحمد» عن قبيصة بن المخارق قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قُلْتُ: كَبُرَ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَأَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ. قال: «يَا قَبِيصَةُ؛ مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ إِلَّا اسْتَغْفَرَ لَكَ».

يعني وأنت في طريقك هذا جئت تطلب العلم «مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ إِلَّا اسْتَغْفَرَ لَكَ»، الحاصل أن طالب العلم تستغفر له السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء، وهذا دعاء من هذه المخلوقات كلها لطالب العلم أن يغفر له، وهذا يدل علىٰ أن طلب العمل من أعظم أبواب المغفرة والفوز

برضوان الله ﷻ.

وقد دل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب].

علىٰ أنَّ الله وملائكته يصلون علىٰ أهل الذكر، والعلم من أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره.

وخرّج الحاكم من حديث سُليم بن عامر قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ أَبِي أُمَامَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي كَأَنَّ المَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ وَكُلَّمَا خَرَجْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ وَكُلَّمَا جَلَسْتَ فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: اللَّهُمَّ غفْرًا، دَعُونَا عَنْكُمْ، وَأَنْتُمْ لَوْ شِئْتُمْ لَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الَملائكَةُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب].

يعني لا تبخل علىٰ نفسك، اعتني بالعلم وأكثر من ذكر الله ﷻ فتنال ذلك، كما دلّت علىٰ ذلك هذه الآية الكريمة.

هنا حقيقة يأتي سؤال وطالب العلم يسمع هذه الفضيلة «حتىٰ الحيتان في الماء تستغفر» ما السر في هذا؟

قد يرد هذا السؤال في الذهن: ما السر في أن الحيتان في البحر تستغفر لطالب العلم؟

فبعض العلماء أخذوا يتلمَّسون بعض الحكم في هذا الباب.

وقد ذكر بعضهم السر في استغفار دواب الأرض للعلماء، وهو أن العلماء يأمرون الناس بالإحسان إلىٰ المخلوقات كلِّها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله أو ذبحه من الحيوانات، فيتعدَّىٰ نفعهم إلىٰ الحيوانات كلها، فلذلك يستغفرون لهم.

أي أن هذا وجه؛ لأن العالم يعلّم الناس الخير، يعلمهم الإحسان، يعلِّمهم الرفق بالحيوان، يعلمهم حتىٰ إذا أراد أن يذبح ما يجوز ذبحه منها كيف يرفق به، فمن العلم الإحسان إلىٰ بهيمة الأنعام كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»، صحابيٌّ كما في «الأدب المفرد» سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله؛ الشاة أذبحها وأرحمها، قال: «**والشاة إذا رحمتها رحمك الله**».

فالحاصل أن الإسلام يعلّم الرفق والرحمة واللطف، والتعامل الطيب مع بهيمة الأنعام، الإسلام يحذّر

من أذىٰ هذه الدواب، جاء في الحديث «أن النبي ﷺ رأىٰ امرأة في النار تُعذَّب في هرّة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»، كذلك المرأة البغي غُفِر لها بكلب اشتد به العطش فسقته.

فالإسلام يعلِّم الرفق بالحيوان ويعلّم الرحمة ويعلّم الإحسان، فبعض العلماء يقول: هذا من الأسرار التي لأجله حتىٰ الحيتان تستغفر لطالب العلم ومن يسلك هذا الطريق الذي يحصل به هذا الخير العظيم، وبعضهم ذكر وجهًا آخر قال:

ويظهر فيه معنىٰ آخر وهو أن سائر المخلوقات مُطيعة لله، قانتة له، مسبحة له غير عصاة الثقلين: الجن والإنس، فكلُّ الخلق المطيعون لله يحبُّون أهل طاعته، فكيف به وهو يعرف الله ويعرف حقوقه وطاعته؟ فمن كانت هذه صِفته، فإن الله يحبُّه ويزكيه ويثني عليه، ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر خلقه بمحبَّته والدعاء له، وذلك هو صلاتهم عليه، ويجعل له المودَّة في قلوب عباده المؤمنين.

كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم].

ولا تختص محبته بالحيوانات؛ بل تحبه الجمادات أيضًا.

كما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان:٢٩] أن السَّماءِ والأَرضَ تَبْكِيٰ عَلَىٰ المُؤْمِنِ إِذَا مَاتَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا.

وفي الحديث: «إِنَّ الأَرْضَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا دُفِنَ: إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ ظَهْرِي، فَسَتَرَىٰ إِذَا صِرْتَ إِلَىٰ بَطْنِي صنيعي».

وإنما يبغض المؤمن والعالم عصاة الثقلين؛ لأنّ معصيتهم لله اقتضت تقديم أهواء نفوسهم علىٰ محبة الله وطاعته، فكرهوا طاعة الله وأهل طاعته، ومن أحبّ الله وأحب طاعته أحب أهل طاعته، وخصوصًا من دعا إلىٰ طاعته وأمر النَّاس بها.

وأيضًا فإن العلم إذا ظهر في الأرض وعُمِل به دَرَّت البركات ونزلت الأرزاق فيعيش أهل الأرض كلهم، حتىٰ النَّملة وغيرها من الحيوانات ببركته، ويستبشر أهل السماء بما يرتفع لأهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك.

يعني أن العالم له أثر في صلاح الأرض صلاح المجتمعات، مثلما أن المفسدين لهم أثر في فساد الأرض

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، الأرض إنما تصلح بالعلم ونور العلم وضيائه، وتفسد بالدعوة إلىٰ المنكرات وإلىٰ الفساد وإلىٰ المحرَّمات، وهذا يؤثِّر فيها صلاحًا وهذا يؤثر فيها فسادًا، فبعضُهم يقول: إن هذا أيضًا من الحكم والأسباب التي لأجله تستغفر له السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء.

وعكس هذا أنَّ من كتم العلم الذي أمر الله بإظهاره لعنه الله وملائكته وأهل السماء والأرض، حيث سعىٰ في إطفاء نور الله في الأرض، الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي والظلم والعداوة والبغي.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة]، وقد قيل: إنها نزلت في أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم في كتابهم من صفة النبي ﷺ.

وكان أبو هريرة يقول: "لَوْلَا آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا. وَيَتْلُو هَذِه الآيَةَ".

وفي سنن ابن ماجه عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة] قَالَ: «دَوَابُّ الأَرْضِ». وقد روي هذا موقوفًا علىٰ البراء.

وروي عن طائفة من السلف قالوا: "تَلْعَنُهُمْ دَوَابُّ الأَرْضِ، ويقولون: مُنعنَا القَطْرَ بِخَطَايَا بَنِي آدَمَ".

فإن كتمان العلم النافع سبب لظهور الجهل والمعاصي، وذلك يوجب محو المطر ونزول البلاء، فيعم دواب الأرض، فتهلك بخطايا بني آدم، فتلعن الدوابّ من كان سببًا لذلك.

وفي القرآن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، والعالم صنيعه في هذا الباب هو إصلاح هذا الفساد، فإذا صار للعالم الدَّور العظيم في الإصلاح صار الأثر يصل إلىٰ الأرض وإلىٰ هذه المخلوقات، والنَّفع يعم هذه الكائنات، فقيل: إنَّ هذا من الأسباب أنها تستغفر لأهل السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء.

وقد ظهر بهذا أن محبة العلماء العاملين من الدِّين، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكميل بن زياد: وَمَحَبَّةُ العَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهَا.

يعني قربة يُتقرَّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، ممَّا يتقرّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به محبة أهل العلم العاملين الذين يعلّمون الخير ويدعون إلىٰ الهدىٰ وينصحون الخلق، ويُرشدونهم إلىٰ عبادة الله ويحذّرونهم من معصيته، فمن

القُرَب التي يتقرب إلىٰ الله ﷻ بها محبة هؤلاء.

وفي الأثر: "كُنْ عَالِمًا أَوْ متعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا أَوْ مُحِبًّا لَهُمْ، وَلَا تَكُنْ الخَامِسَ فَتَهْلَكَ".

قال بعض السلف عند هذا: سُبحَانَ اللهِ! لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مَخْرَجًا.

يعني أنّه لا يخرج عن هذه الأربعة الممدوحة إلا الخامس الهالك، وهو من ليس بعالم ولا متعلم، ولا مستمع ولا محبٍّ لأهل العلم، وهو الهالك.

فإن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فيخشىٰ ألا يُرفَع له مع ذلك عمل، كما قال سفيان الثوري وغيره من السلف.

وقد كان بعض خدم الخلفاء يبغض أبا الفرج ابن الجوزي ويسعىٰ في أذاه بجهده، فرآه بعضهم في منامه وهو يذهب به إلىٰ النار، فسئل عن سبب ذلك فقيل له: كان يبغض ابن الجوزي.

قال ابن الجوزي: "لَمَّا زَادَ تَعَصُّبُهُ وَأَذَاهُ لَجَأْتُ إِلَىٰ اللهِ فِي كَشْفِ سِتْرِهِ، فَقَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قَرِيبًا".

الحاصل أن محبَّة العلم ومحبة أهله هذا أيضًا باب من الخير؛ لأن المرء إما أن يكون عالما أو يكون متعلما، أو يستمع للعلم، بعض الناس يحب مجالس العلم ويجد من نفسه أنه لا يحصّل، لكنه يرجو خيرًا بجلوسه وسماعه، ولهذا بعض العوام الأخيار الأفاضل ما يفوّت مجالس العلم، ويحرص عليها ويجلس فيها من سنوات طوال وإن كان لا يجد نفسه يحصّل مثلما يحصّل طلاب العلم الذين يقيّدون ويكتبون ويحفظون إلىٰ آخره، لكنه يرجو خيرًا وبركة.

ولا شك أن الأمر كما قال النبي ﷺ: «هم القوم لا يشقىٰ بهم جليس»، وأيضًا من يحبهم ويحب الخير الذي هم فيه وفي قلبه محبَّة لهم، فهذا أيضًا علىٰ خير، لكن المصيبة في الشَّخص الذي يبغض -والعياذ بالله- العلم ويُبغض طلبة العلم، ويبغض مجالس العلم وفي قلبه كراهية لهم، هذا هالك والعياذ بالله.

ويترتَّب علىٰ البغض للعلم هذه المعاني التي ذكر الشيخ وهي مهمّة ﷺ، قال: فإن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فمثل هذا يُخشىٰ ألا يُرفع له عمل مع حاله هذه السيئة والعياذ بالله.

ولما قتل الحجاجُ سعيدَ بن جبير كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَىٰ عِلمِهِ، فَمَنَعَهُمْ الانْتِفَاعَ بِعِلْمِهِ، فَرَئِي

فِي الْمَنَامِ أَنَّ الحَجَّاجَ قُتِلَ بِكُلِّ قَتِيلٍ قَتَلَهُ فِي الدُّنْيَا قِتلَةً، وَقُتِلَ بِسعيدِ بنِ جُبيرٍ سَبْعِينَ قِتْلَةً.

ولهذا المعنىٰ كان أشد الناس عذابًا من قتل نبيًّا؛ لأنّه سعىٰ في الأرض بالفساد، ومن قتل عالمًا فقد قتل خليفة نبي، فهو ساعٍ في الأرض بالفساد أيضًا، ولهذا قرن الله بين قتل الأنبياء وقتل العلماء الآمرين بالمعروف في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران].

وقال عكرمة وغيره من السلف في قوله تعالىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة:٣٢] مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامَ عَدْلٍ قَالَ: فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ شَدَّ عَلَىٰ عَضُدِ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامِ عَدْلٍ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا.

من المعلوم أن قتل النفس المسلمة المعصومة من أعظم الكبائر ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفرقان:٦٨] هذه من أعظم الكبائر؛ بل إن أعظم جريمتين عُصي الله ﷻ بهما بعد الشِّرك قتل النفس وقتل الغير بغير حق، فكيف إذا كان الذي قُتل رجل يحمل العلم وينشُر الخير في الأمة، كيف إذا كان الذي قُتل رجلٌ ينشر العلم، لا يزال الناس يتفقّهون عليه ويتعلمون ويستفيدون من علمه، ثم يتجرّأ متجرئ من أهل الضلال ويقتله.

فقتله للعالم هو سعي في إطفاء نور العلم؛ لأن هذا العالم يحمل العلم وينشره في الأمة ويعلّم الناس الخير، فقتله إطفاءٌ لنور العلم، فيكون الإثم مضاعَفًا.. قتله للنفس المعصومة هذا من أكبر الذنوب بعد جريمة الشرك، فكيف إذا كان الذي قُتِل عالمٌ يضيء للناس الخير ويعلمهم طريق الخير.

❀❀◇❀❀

قوله ﷺ: «وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ».

وقد رُوِي هذا المعنىٰ عن النبي ﷺ أيضًا من حديث معاذ وأبي الدرداء، ولكن إسنادهما منقطع.

وفي هذا المثل تشبيه للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب، وأن بين العالم والعابد من التَّفاوت في الفضل كما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسر في ذلك والله أعلم أنَّ الكوكب ضوؤه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر فإن نوره يُشرق علىٰ أهل الأرض جميعًا، فيعمُّهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم.

وإنَّما قال: «علىٰ سائر الكواكب» ولم يقل: علىٰ سائر النجوم؛ لأنَّ الكواكب هي التي لا تسير ولا

يهتدىٰ بها، فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصورٌ علىٰ نفسه، وأما النجوم فهي التي يهتدىٰ بها كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل].

ولهذا مرَّ معنا في كلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتقدِّم تشبيه العالم بالنجم الذي يُهتدىٰ به.

﴿﴿ ◊ ﴾﴾

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]، فكذلك مَثَّلَ العلماء من أمته بالنجوم في الحديث الذي سبق ذكره، وكذلك روي عنه أنّه قال: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ؛ فَبِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**».

وقد قيل: إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالم نوره مقتبَس من نور الرِّسالة، فلذلك شُبِّه بالقمر ولم يُشبَّه بالشمس.

ولما كان الرَّسول ﷺ سراجًا منيرًا، يُشرق نوره علىٰ الأرض، كان العلماء ورثته وخلفاؤُه مشبَّهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يدخلون الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لِأَهْلِ الأَرْضِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَضْوَأ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ**».

ولا يبعد -والله أعلم- أن العلماء الربانيين من الزمرة الأولىٰ، كما كانوا في الدنيا بمنزلة القمر ليلة البدر لأهل الأرض، وقد يشاركهم في ذلك المبرّزون من العُبَّاد ولا سيما من انتفع الناس باستماع أخبارهم، ورقت القلوب عند ذكرهم، وحنَّت إلىٰ اقتفاء آثارهم، وأما الزمرة الثانية فهم عموم العباد.

ولما مات الأوزاعي، وكان إمام أهل الشام في العلم مع شدة عبادته وكثرة خشيته وخوفه من الله تعالىٰ رئي في المنام فَقَالَ: ما رأيت هناك أعظم من درجة العلم، ثم درجة المحزونين، يعني: أهل الخوف من الله والخشية والحزن.

وقد دل هذا الحديث علىٰ تفضيل العلم علىٰ العبادة تفضيلًا بيّنًا، والأدلة الدالة علىٰ ذلك كثيرة.

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] يعني: علىٰ الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وخرّج الترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالآخَرُ عَالِمٌ،

فَقَالَ ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَاكُمْ» وقال: صحيح حسن غريب.

وخرّج أيضًا هو وابن ماجه من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ».

وخرّج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللهَ ﷻ وَالْأُخْرَىٰ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كُلٌّ عَلَىٰ خَيْرٍ، هَؤُلَاءِ يَدْعُونَ اللهَ ﷻ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا. فَجَلَسَ مَعَهُمْ».

لكن لم يثبت هذا، وكذلك الذي قبله أيضا لم يثبت عن النبي ﷺ.

وخرّجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» وزاد فيه بعد قوله: «وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»: «هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ».

وخرّج الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «قَلِيلُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ».

وخرّج البزار والحاكم وغيرهما بأسانيد متعددة مرفوعًا: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ».

وفي «مراسيل الزهري» عن النبي ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ حُضْرِ جَوادٍ مِائَةَ عَامٍ».

والآثار الموقوفة عن السلف في هذا كثيرة جدًّا:

فروي عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: "البَابُ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُل أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا"، وخرّجه ابن ماجه من حديث أبي ذر مرفوعًا.

وروي عن أبي الدرداء قال: "مُذَاكَرَةُ العِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ".

ويروىٰ عن أبي هريرة مرفرعًا: «لأَنْ أَفْقَه سَاعَة أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحيِي لَيلَةً أُصَلِّيهَا حَتَّىٰ أُصْبِحَ».

وعنه قال: "لأَنْ أَعْلَمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فِي أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ".

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "تَذَاكُرُ العِلمِ بَعضَ لَيلَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِحْيَائِهَا".

وصح عن أبي موسىٰ الأشعري أنّه قال: "لَمَجْلِسٌ أَجْلِسُهُ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَوْثَقُ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ".

وعن الحسن قال: "لأَنْ أَتعَلَّمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فَأُعَلِّمُهُ مُسْلِمًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِي الدُّنْيَا كُلُّهَا أَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ".

وعنه قال: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ البَابَ مِنَ العِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ فَيكُونُ خَيرًا لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَوْ كَانَتْ لَهُ فَيَجْعَلُهَا فِي الآخِرَةِ".

وعنه قال: "مِدَادُ العُلَمَاءُ ودَمُ الشُّهَدَاءُ مَجْرَىٰ وَاحِدٍ".

(إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ البَابَ مِنَ العِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ) باب واحد (فَيكُونُ خَيرًا لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَوْ كَانَتْ لَهُ فَيَجْعَلُهَا فِي الآخِرَةِ)، هذا يدل علىٰ فضل العلم ومجاهدة النفس علىٰ التعلم والعمل.

وعنه: "مَا مِن شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ أَعْظَمُ عِندَ اللهِ فِي عَظِيمِ الثَّوَابِ مِنْ طَلَبِ عِلْمٍ، لَا حَجَّ، وَلَا عُمَرَةَ، وَلَا جِهَادَ، وَلَا صَدَقَةَ، وَلَا عِتْقَ، وَلَوْ كَانَ العِلْمُ صُورَةً لَكَانَتْ صُورَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ صُورَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالسَّمَاءِ وَالعَرْشِ".

قال الزهري: "تعلُّم سنة أفضلُ من عِبَادَةِ مَائَتَي سَنَة".

وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: "لَيسَ بَعدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ".

قال الثوري: "لَا نَعلَمُ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَالحَدِيثِ لِمَنْ حَسُنَتْ فِيهِ نيَّتُهُ. قِيلَ لَهُ: وأَيُّ شَيءٍ النِّيَّةُ فِيهِ؟ قَالَ: يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ".

هذا كلام عظيم لسفيان رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل العمل يقول: (لَا نَعلَمُ شَيْء مِنَ العَمَلِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ لِمَنْ حَسُنَتْ فِيهِ نيَّتُهُ)، مثله قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيءٌ إِذَا صَلَحَت النيّة".

سئل سفيان: "وأَيُّ شَيءٍ النِّيَّةُ فِيهِ -يعني كيف تصلح-؟ قَالَ: يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ"، أن يبتغي بطلب العلم وجه الله.. "يُرِيدُ بِهِ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ".

وقال الشافعي: "طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ نَافِلَةٍ".

ورأىٰ مالك بعض أصحابه يكتب العِلْم ثم تركه وقام يصلي، فَقَالَ: عَجَبًا لَكَ! مَا الَّذِي قُمْتَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلَ مِنَ الَّذِي تَرَكْتَهُ.

وَسُئِلَ الإمام أحمد: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيكَ، أَن أُصَلِّي بِاللَّيلِ تَطَوُّعًا، أَو أَجْلِسَ أَنسَخُ العِلْمَ؟ قال: إِذَا كنتَ تَنسَخُ مَا تعلمَ أَمرَ دِينِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ.

وقال أحمد أيضًا: "العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيءٌ".

وقال المعافى بن عمران: "كِتَابَةُ حديثٍ واحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيلَةٍ".

وممَّا يدل علىٰ تفضيل العِلْم علىٰ جميع النوافل أن العِلْم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة؛ فإن العِلْم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره، وهو أيضًا أفضل أنواع الجهاد.

ويُروىٰ من حديث عبد الله بن عمر والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: "إِنَّهُ يُوزَنُ مِدَادُ العُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ فَيَرجحُ مِدَادُ العُلَمَاءِ".

والمداد هو الحبر الذي يُكتَب به العلم.

❀❀◊❀❀

وخرّج الترمذي من حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُو فِي سَبِيلِ اللهِ حَتّىٰ يَرجِعَ».

وورد في حديث آخر: «إِذَا جَاءَ المَوْتُ طَالِبَ العِلْمِ فَهُوَ شَهِيدٌ».

وقال معاذ بن جبل: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ حَسَنَة، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ سَبِيلُ مَنَازِلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنِيسُ فِي الْوِحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ، وَالمُعِينُ عَلَىٰ الضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَىٰ بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَىٰ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ.

يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَحِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ البَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِصْابِيح الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَة، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، وَيَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ والأَبْرَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامِ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ الْعمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ».

رواه ابن عبد البر... "به يُعْرَف اللهُ وَيُعْبَد، وبه يمجد ويوحد، يَرْفع الله بالعلم أقوامًا فيجعلهم قادة وأئمة للناس يقتدون بهم ويرجعون إلىٰ رأيهم". في كلام أكثر من هذا. وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة.

هذا الذي يروىٰ عن معاذ بن جبل فيه فضائل كثيرة للعلم وطلب العلم، وفيه حث علىٰ العلم، فتأمله

نافع جدًّا لطالب العلم يقف علىٰ هذه الفضائل التي عدَّدها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ابن عبد البر أورد هذا الأثر وقال: هو حديث حسن جدًّا ولكن ليس إسناده بالقوي، وأراد حسن أي معناه حسن جميل.

وابن القيم يقول: هذا الأثر معروف عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحاصل أنه فيه معاني عظيمة جدًّا في فضل العلم وطلب العلم، فجدير بطالب العلم أن يتأمل في هذه المعاني والفضائل.

ومما يدلُّ علىٰ تفضيل العِلْم علىٰ العبادة: قصة آدم عليه السلام فإن الله تعالىٰ إنما أظهر فضله علىٰ الملائكة بالعلم، حيث علّمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلمّا أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذٍ فضله عليهم، وقال عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

وذكر طائفة من السلف أَنَّ الَّذِي كتمُوهُ أنّهُمْ قالُوا فِي أنفُسهمْ: لَنْ يَخْلُقَ اللهُ خَلْقًا إِلَّا نَحْنُ أَكرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ.

وممَّا يدل علىٰ فضل العِلْم أن جبريل عليه السلام، إنما فُضِّل علىٰ الملائكة المشتغلين بالعبادة بالعلم الَّذِي خُصَّ به، فإنه صاحب الوحي الَّذِي ينزل به علىٰ الأنبياء عليهم السلام.

وكذلك خواص الرُّسل إنما فُضِّلوا علىٰ غيرهم من الأنبياء عليهم السلام بمزيد العِلْم المقتضي لزيادة المعرفة بالله والخشية له.

ولهذا وصف الله تعالىٰ محمدًا ﷺ في كتابه ومدحه بالعلم الَّذِي اختصه به، وامتن به عليه في مواضع كثيرة، وأمره أن يعلمه لأمته.

فأول ما ذكّره بالعلم وبتعليمه في قصة إبراهيم حين دعا ربه لأهل البيت الحرام أن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم امتن علينا بأن بعث فينا رسولًا منَّا، وهو محمد ﷺ بهذه الصفة، فَقَالَ تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وأول ما أُنزل علىٰ محمد ﷺ ذِكر العِلْم وفضله، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

وامتن علىٰ محمد ﷺ بالعلم في مواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ۝١١٣﴾ [النساء].

وأمره أن يسأل ربه أن يزيده علمًا، فَقَالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤﴾ [طه].

وكان ﷺ يقول: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً».

وامتن الله تعالىٰ علينا أن بعث فينا هذا الرسول ﷺ، الَّذِي يعلمنا ما لم نكن نعلم وأمرنا بشكر هذه النعمة كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

وأخبر سبحانه أنّه إنما خلق السَّمٰوات والأرض ونزّل الأمر لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلًا علىٰ معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق] فهذا فيه أن الله خلق السَّمٰوات والأرض ونزّل الأمر بينها لِنعْلَم.

٭٭٭

ومدح الله في كتابه العلماء في مواضع كثيرة، وقد سبق ذِكْرُ بعضِها، وأخبر أنّه إنما يخشاه من عباده العلماء، وهم العلماء به.

قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨] قال: "إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ عِبَادِي مَنْ عَرِفَ جَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي".

وهذا يدل علىٰ فضل تعلم باب الأسماء والصفات، والفقه في هذا الباب العظيم (إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ عِبَادِي مَنْ عَرِفَ جَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي) يعني عرف الله بأسمائه وصفاته في ضوء كتابه وسنة رسوله ﷺ.

٭٭٭

فأفضل العِلْم العِلْم بالله، وهو العِلْم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته، والتبتُّل إِلَيْهِ والتوكل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العِلْم بملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك، والعلمُ بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبُّه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وما يكرهه من عباده من

الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربَّانيين، العلماء بالله، العلماء بأمر الله.

وهم أكمل ممَّن قصر علمه علىٰ العِلْم بالله دون العِلْم بأمره وبالعكس، وشاهد هذا النَّظر في حال الحسن وابن المسيَّب، والثوري وأحمد وغيرهم من العلماء الربَّانيين، وحال مالك بن دينار والفضيل بن عياض، ومعروف وبشر وغيرهم من العارفين.

فمن قايس بين الحالين عرف فضل العلماء بالله وبأمره علىٰ العلماء بالله فقط.

فما الظنُّ بتفضيل العلماء بالله وبأمره علىٰ العلماء بأمره فقط، فإن هذا واضحٌ لا خفاء به، وإنما يظن بعض من لا علم له تفضيل العُبَّاد علىٰ العلماء؛ لأنّهم تخيّلوا أن العلماء هم العلماء بأمر الله فقط، وأن العُبَّاد هم العُلماء بالله وحده، فرجّحوا العالم بالله علىٰ العالم بأمره، وهذا حقّ.

لكن أفضل منهما العالم بالله العالم بأمر الله.

ونحن إنما نقول: إن العلماء بالله والعلماء بأمره أفضل من العُبَّاد، ولو كان العُبّاد من العلماء بالله؛ لأنّ العلماء الربانيين شاركوا العُبّاد في فضيلة العِلْم بالله؛ بل ربما زادوا عليهم فيه وانفردوا بفضيلة العِلْم بأمر الله، وبفضيلة دعوة الخلق إلىٰ الله وهدايتهم إِلَيْهِ، وهو مقامُ الرسل عليهم السلام وكذلك كانوا خلفاء الرسل وورثتهم كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ.

يعني في الحديث «فإن العلماء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم».

وهذا القدر الَّذِي انفردوا به عن العُبَّاد أفضل من القدر الَّذِي انفرد به العُبَّاد من نوافل العبادة، فإن زيادة المعرفة بما أنزل الله علىٰ رسوله توجب زيادة المعرفة بالله والإيمان به، وجنس المعرفة بالله والإيمان به أفضل من جنس العمل بالجوارح والأركان، ولكن من لا علم له تعظم في نفسه العبادات علىٰ العِلْم؛ لأنّه لا يتصوَّر حقيقة العِلْم ولا شرفه، ولا قُدرة له علىٰ ذلك، وهو يتصوَّر حقيقة العبادات، وله قدرة علىٰ جنسها في الجملة.

ولهذا تجد كثيرًا ممن لا علم لديه يفضِّل الزهد في الدنيا علىٰ العلوم والمعارف، وسببه ما ذكرناه، وهو أنّه لا يتصوَّر معنىٰ العِلْم والمعرفة، ومن لا يتصور شيئًا لا يقرّ في صدره عظمته، وإنما يتصور الجاهل بالعلم حقيقة الدُّنيا، وقد عظمت في صدره، فعظُم عنده من تركها.

كما قال محمد بن واسع وقد رأىٰ شابًّا فقِيلَ لَهُ: هؤلاء زُهّاد فَقَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ قَدْرُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُمْدَحَ مَنْ زَهِدَ فِيهَا.

وقال أبو سليمان الداراني قريبًا من هذا المعنىٰ أيضًا، فالمفتخر بالزهد في الدنيا كأنّه يفتخر بترك نزر يسير من شيء هو أقل عند الله من جناح بعوضة، وهذا أحقر من أن يذكر، فضلًا عن أن يفتخر به.

ولهذا أيضًا يعظم في نفوس كثير من الناس ذكر الخوارق والكرامات، ويرونها أفضل مما أعطيه العلماء من المعرفة والعلم، وإنما يتصورون حقيقة الخوارق؛ لأنها من جنس القدرة والسلطان في الدنيا، الَّذِي يعجز أكثر الناس عنه.

أفضل الكرامة لزوم الاستقامة، أن يلزم المرء طاعة الله وعبادة الله، ويشغل نفسه بالعلم والفقه في دين الله؛ فهذه أفضل كرامة وأعلىٰ شأن في نيل الكرامات.

وأما العلماء بالله فلا تعظم هذه الخوارق عندهم؛ بل يرون الزهد فيها، وإنها من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا علىٰ العبد، فيخافون من الاشتغال بها والوقوف معها، والانقطاع عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ذكر أبو طالب المكي هذا المعنىٰ في كتابه عن كثير من العارفين منهم أبو يزيد، ويحيىٰ بن معاذ، وسهل التستري، وذو النون، والجنيد وغيرهم.

وقيل لبعضهم: أن فلانًا يمشي علىٰ الماء! فَقَالَ: "مَنْ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ فَهُوَ الأَفْضَلُ".

فالعبرة بالاستقامة ومجانبة الهوىٰ ولزوم لاحق والهدىٰ، هذه الكرامة الحقيقية.

وكان أبو حفص النيسابوري يومًا جالسًا مع أصحابه خارج المدينة، وهو يتكلم عليهم، فطابت أنفسهم فجاء أيل.

أيل: الوعل وهو الذكر من الوعال.

قد نزل من الجبل حتىٰ برك بين يديه، فبكىٰ بكاءً شديدًا وانزعج، فسئل عن سبب بكائه، فَقَالَ: رأيت اجتماعكم حولي وقد طابت قلوبكم، فوقع في قلبي لو أن لي شاة ذبحتها ودعوتكم، فما تحكّم هذا الخاطر حتىٰ جاء هذا الوحش فبرك بين يدي، فخُيِّل لي أني مثل فرعون، الَّذِي سأل ربه أن يُجري له النيل فأجراه له، قلت: فما يؤمنني أن يكون الله يعطيني كل حظٍ في الدنيا، وأبقىٰ في الآخرة فقيرًا لا شيء لي،

فهذا الَّذِي أزعجني.

فأحوال العارفين كلها تدل علىٰ أنّهم لم يكونوا يلتفتون إلىٰ هذه الخوارق وإنما كان اهتمامهم بمعرفة الله وخشيته، ومحبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه وطاعته، والعلماء الربانيون يشاركونهم في ذلك

أي يشاركون العُبّاد في هذا الجانب

ويزيدون عليهم بالعلم بأمر الله وبدعوة الخلق إلىٰ الله.

وهذا هو الفضل العظيم عند الله وملائكته ورسله كما قال بعض السلف: مَنْ عَمِلَ وَعَلِمَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَىٰ عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ.

وإذا ظهر فضل العالم علىٰ العابد، فإنما المراد تفضيله علىٰ العابد بعلم، فأما العابد بغير علم؛ فإنه مذموم.

هذا أيضًا جانب مهم جدًّا ينبّه عليه الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ، عندما يقال: إن العالم أفضل من العابد فالمراد بالعابد الذي يعبد بعلم عبادات صحيحة شرعية، أما العابد الذي يعبد ببدع وأهواء فهذا لا يدخل في هذا الباب «فضل العالم علىٰ العابد»؛ لأن العبادات التي هي قائمة علىٰ بدع ليست مقبولة من ذلك العابد؛ بل هي مردودة عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

ولهذا شبهه السلف بالسائر علىٰ غير طريق، وبأنه يفسد أكثر مما يصلح.

يُروىٰ عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "من عبد الله بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح"، ولهذا هنا قال ابن الجوزي: وأنه يُفسد أكثر مما يصلح؛ لأنَّ البِدع ليست هي طريق إلىٰ الله وليست دين يُتقرَّب به إلىٰ الله؛ بل هي أهواء مردودة علىٰ أصحابها غير مقبولة منهم.

وبأنَّه كالحمار في الطَّاحون، يدور حتىٰ يهلك من التَّعب ولا يبرح من مكانه، وهذا أشد ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاج إلىٰ بسط القول فيه.

ولنضرب هاهنا مثلًا جامعًا لأحوال الخلق كلهم، بالنسبة إلىٰ دعوة الرسول ﷺ، وانقسامهم في إجابة دعوته إلىٰ: سابق، ومقتصد، وظالمٍ لنفسه، وبه يظهر فضل العلماء الربانيين علىٰ غيرهم من الناس أجمعين، فنقول:

مثل ذلك كمثل رسول قدِم من بلد الملك الأعظم فأدَّىٰ رسالة الملك إلىٰ سائر البلدان، وظهر لهم صدقه في رسالته، فكان مضمون رسالته التي أداها من الملك الأعظم إلىٰ رعيته: أن هذا المَلِك لا إحسان أتم من إحسانه، ولا عدل أكمل من عدله، ولا بطش أشد من بطشه، وأنه لابد أن يستدعي الرعية كلهم إِلَيْهِ ليقيموا عنده، فمن قدم عليه بإحسان جازاه بإحسانه أفضل الجزاء، ومن قدم عليه بإساءة جازاه بإساءته أشد الجزاء، وأنه يحب كذا وكذا، ويكره كذا وكذا، ولم يدع شيئًا مما تعمله الرعية إلا أخبرهم بما يحبه الملك منه وبما يكره، وأمرهم بالتجهُّز والسير إلىٰ دار الملك التي فيها الإقامة، وأخبرهم بخراب جميع البلدان سوىٰ ذلك البلد، وأن من لم يتجهّز للسير بعث إِلَيْهِ الملك من يزعجه عن وطنه، وينقله منه علىٰ أسوأ حال، وجعل يصف صفات هذا الملك الحسنىٰ من الجمال والكمال، والجلال والإفضال.

فانقسم الناس في إجابة هذا الرسول الداعي إلىٰ الملك أقسامًا عديدة:

فمنهم من صدّقه ولم يكن له همٌّ إلا السؤال عما يحبّ هذا الملك من الرعية استصحابَه إلىٰ داره عند السير إِلَيْهِ، فانشغل بتخليصه لنفسه، وبدعاء من يمكنه دعاؤه من الخلق إلىٰ ذلك، وعما يكرهه الملك، فاجتنبه وأمر الناس باجتنابه، وجعل همَّه الأعظم السؤال عن صفات الملك وعظمته وإفضاله، فزاد بذلك محبته لهذا الملك وإجلاله، والشوق إلىٰ لقائه، فارتحل إلىٰ الملك مستصحبًا لأنفس ما قدر عليه مما يحبُّه الملك ويرتضيه، واستصحب معه ركبًا عظيمًا علىٰ مثل حاله، سار بهم إلىٰ دار الملك.

وقد عُرِف من جهة ذلك الدليل وهو الرسول الصادق أقرب الطرق التي يُتَوصل بالسير فيها إلىٰ الملك، وما ينفع من التزود للمسير فيها، وعَمِلَ بمقتضىٰ ذلك في السير هو ومن اتبعه.

فهذه صفة العلماء الربَّانيين الذين اهتدوا وهدوا الخلق معهم إلىٰ طريق الله، وهؤلاء يقدُمون علىٰ الملك قدوم الغائب علىٰ أهله، المنتظرين لقدومه، المشتاقين إِلَيْهِ أشد الشوق.

وقسمٌ آخر اشتغلوا بالتأهب لمسيرهم بأنفسهم إلىٰ الملك ولم يتفرغوا لاستصحاب غيرهم معهم، وهذه صفة العُبّاد الذين تعلموا ما ينفعهم في خاصة أنفسهم، واشتغلوا بالعمل بمقتضاه.

وقسم آخرون تشبهوا بأحد القسمين، وأظهروا للناس أنّهم منهم، وأن قصدهم التزود للرحيل، وإنما كان قصدهم استيطان دارهم الفانية، وهم العلماء والعُبّاد المراؤون بأعمالهم؛ لينالوا بذلك مصالح دارهم التي هم بها مستوطنون، وحال هؤلاء عند الملك الأعظم إذا قدموا عليه شر حال، ويقال لهم: اطلبوا جزاء أعمالكم مما عملتم لهم، فليس لكم عندنا من خلاف، وهم أول من تُسعَّرُ بهم النار من أهل التوحيد.

وقسمٌ آخر فهموا ما أراده الرسول من رسالة الملك، لكنهم غلب عليهم الكسل والتقاعد عن التزوُّد للسفر، واستصحاب ما يحب الملك، واجتناب ما يكرهه، وهؤلاء العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، وهم علىٰ شفا هلكة، وربما انتفع غيرهم بمعرفتهم ووصفهم لطريق السير، فسار المتعلمون فنجوا، وانقطع بمن تعلموا منهم الطريق فهلكوا.

وقسمٌ آخرون صدقوا الرسول فيما دعا إِلَيْهِ من دعوة الملك، لكنهم لم يتعلموا منه طريق السير، ولا معرفة تفاصيل ما يحبه الملك وما يكرهه، فساروا بأنفسهم، ورموا نفوسهم في طرق شاقة، ومخاوف وقفار وعرة، فهلك أكثرهم، وانقطعوا في الطريق، ولم يصلوا إلىٰ دار الملك، وهؤلاء الذين يعملون بغير علم.

وقسمٌ لم يهتموا بهذه الرسالة، ولا رفعوا بها رأسًا، واشتغلوا بمصالح إقامتهم في أوطانهم التي أخبر الرسول بخرابها، وهؤلاء منهم من كذّب الرسول بالكلية، ومنهم من صدّقه بالقول ولكنه لم يشتغل بمعرفة ما دل عليه ولا بالعمل به، وهؤلاء عموم الخلق المُعْرِضُون عن العِلْم والعمل.

ومنهم الكفار والمنافقون، ومنهم العصاة الظالمون لأنفسهم، فلم يشعروا إلا وقد طرقهم داعي الملك، فأخرجهم عن أوطانهم، واستدعاهم إلىٰ الملك، فقدموا عليه قدوم الآبق علىٰ سيده الغضبان.

فإذا تأملت أقسام الناس المذكورة لم تجد أشرف ولا أقرب عند الملك من العلماء الربانيين، فهم أفضل الخلق بعد المرسلين.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نقف إلىٰ هذا الحد.

[وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.]

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛

نكمل ما بقي من هذا الكتاب النَّافع المبارك كتاب «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم».

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

قوله ﷺ: «**وَإِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**» يعني أنّهم ورِثُوا ما جاء به الأنبياء من العِلْم، فخلفُوا الأنبياء في أُمَمهم بالدَّعوة إلىٰ الله وإلىٰ طاعته، والنَّهي عن معاصي الله والذَّبِّ عن دِينه.

وفي مراسيل الحسن عن النبيِّ ﷺ قال: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ خُلَفَائِي**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي مِنْ بَعْدِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ**».

وقد رُوي نحوه من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا أيضًا.

فالعلماء في مقام الرُّسل بين الله وبين خلقه، كما قال ابن المنكدر: إِنَّ العَالِمَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيفَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمِ.

وقال ابن عيينة: أَعْظَمُ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ الأَنْبِيَاءُ وَالعُلَمَاءُ.

ولهذا المعنىٰ سمّىٰ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أحد كتبه بـ«إعلام الموقعين عن رب العالمين»، فالعالِم بين الله وبين خلقه؛ لأنه هو الواسطة في نقل الدين الذي تلقاه عن المرسلين؛ لأن الرسل واسطة بين الله وخلقه في بيان دِينه، والعلماء ورثة الأنبياء، لأن «**الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**».

وقال سهل التُّستري: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَجَالِسِ العُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، أيش تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: طُلِّقَتْ امْرَأَتُهُ، وَيَجِيءُ آخَرُ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟ فيقول: ليس يحنث بهذا القول. وليس هذا إلا لنبي أو عالم، فاعرفوا لهم ذلك.

الآن بعض التأكيد لهذا المعنىٰ، بعض الناس ربّما يتطاول في بعض المجالس علىٰ بعض العلماء، ثم يحصل له مسألة في طلاق أو في شيء من هذا القبيل، فيذهب إلىٰ من كان يطعن فيه أو يقدح فيه أو يسخر منه، فيسأله عن الحق في ذلك (فاعرفوا لهم ذلك) يعني اعرفوا لأهل العلم قدرهم، بعض الناس ما يعرف قدر العلماء إلا إذا اضطُرّ في مسألة معينة يرىٰ أنه يستفتي فيها العالم فيعرف قدر العالم حينئذ، بينما الأصل أن يُعرَف قدر العالم كلَّ وقت لما يبذله من جهود عظيمة في نفع الناس وفتواهم وتعليم الخير ودلالتهم علىٰ الحق والهدىٰ.

ورأت امرأة من العابدات في زمن الحسن البصري في منامها كأنها تُستفتَىٰ في المستحاضة، فقِيلَ لَهَا: أتُسْتَفْتَين وفيكم الحسن، وفي يده خاتم جبرائيل عليه السلام؟

وفي هذا إشارة إلىٰ وراثة الحسن ما جاء به جبرائيل من الوحي بخاتمه.

مثل هذه المنامات يذكرها العلماء استئناسًا.

ورأىٰ بعض العلماء النبي ﷺ في المنام فَقَالَ له: يا رسول الله، قد اختُلِف علينا في مالك والليث أيهما أعلم؟ فَقَالَ ﷺ: مالك ورث جدي يعني: ورث علمي.

الجدّ أي النصيب، ورِث جدّي أي ورث نصيبي وعلمي.

ورأىٰ بعضهم في المنام النبي ﷺ قاعدًا في المسجد، والناس حوله، ومالك قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله ﷺ مسك، وهو يأخذ منه قبضة فيدفعها إلىٰ مالك، ومالك ينشرها علىٰ الناس فأُوِّل ذلك لمالك بالعلم واتباع السُّنة ونشرها.

ورأىٰ الفضيل بن عياض النبي ﷺ في منامه جالسًا، وإلىٰ جنبه فرجة فجاء ليجلس فيها، فَقَالَ له النبيُّ ﷺ: "هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري".

فسئل بعضهم: أيهما كان أفضل أبو إسحاق أو فُضيل؟ فَقَالَ: كان فضيل رجل نفسه وكان أبو إسحاق رجل عامَّة. يشير إلىٰ أنّه كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه، وكان فُضيل عابدًا نفعُه لنفسه.

والعلماء في الآخرة يتلون الأنبياء في الشفاعة وغيرها، كما في الترمذي عن عثمان عن النبي ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ».

وقال مالك بن دينار: "بَلَغَنَا أَنَّهُ يُقَالُ لِلعَابِدِ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، وَيُقَالُ لِلْعَالِمِ: قِفْ فَاشْفَعْ".

وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف جدًّا.

وللعلماءِ الكلامُ في الموقف إذا اشتبهت الأمور علىٰ الناس؛ فإذا ظن أهل الموقف أنّهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة؛ بَيّن أهل العِلْم أن الأمر علىٰ خلاف ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ [الروم] الآية.

والعلماء يخبِرون يوم القيامة بخزي المشركين كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾ [النحل].

وقد روي في حديث مرفوع: «أَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ فِي الجَنَّةِ إِلَىٰ العُلَمَاءِ كَمَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنيا، إِذَا اسْتَدْعَىٰ الرَّبُّ أَهْلَ الجَنَّةِ لِزِيَارَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: سَلُونِي مَا شِئْتُمْ فَيَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ العُلَمَاءِ مِنْهُمْ، فَيَقُولُونَ: سَلُوهُ رُؤْيَتَهُ؛ فَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْظَمُ مِنْهَا».

وهذا كله يبين أن لا درجة بعد النبوة أفضل من درجة العلماء.

وقد يُطْلَق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران:١٨].

فلم يفرد الأنبياء بالذكر؛ بل أدخلهم في مسمىٰ العلماء، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلماء أنّهم يسمَّون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه.

ومن هنا قال من قال: إِنَّ العُلَمَاءَ العَامِلِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ.

كما قال أبو حنيفة والشَّافعي: إِنْ لَمْ يَكُنْ العُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ أَوْلِيَاءَ اللهِ فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ.

وقال الإمام أحمد في أَهْلِ الْأثر: إِنَّهُمْ هُمُ الأَبْدَالُ.

وقوله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**».

والمراد بهذا: أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلّفوه، وأن الَّذِي خلّف الأنبياء هو العِلْم النافع، فمن أخذ العِلْم وحصل له فقد حصل له الحظ العظيم الوافر الَّذِي يغبط به صاحبه.

وَرَأَىٰ ابْنُ مَسْعُود قَوْمًا فِي المَسْجِدِ يَتَعَلَّمُونَ فَقَالَ رَجُلٌ: "عَلَىٰ مَا اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: عَلَىٰ مِيرَاثِ مُحَمَّد ﷺ يَقْتَسِمُونَهُ".

وخرج أبو هريرة إلىٰ السوق، فَقَالَ لأهله: "تَرَكْتُمْ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْتَسَمُ فِي المَسْجِدِ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟!".

هذه لطيفة جدًّا من أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أنه وجد الناس في السوق فقال: (تَرَكْتُمْ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْسَمُ فِي المَسْجِدِ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟!) فانطلقوا للمسجد، ظنوا فيه مال وأشياء من هذا القبيل، وبقي ينتظرهم -كما جاء في تتمة الأثر-، فرجعوا إليه قالوا: ما وجدنا، أي الشيء الذي وقع في ذهنهم من مال أو غيره، قالوا: ما وجدنا، قال: أما وجدتم عالمًا يعلّم؟ قالوا: بلىٰ، قال: هذا هو ميراث محمد ﷺ «**فإن العلماء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم**».

ولهذا في الأثر الذي قبله: فقال ابن مسعود: "ميراث محمد يقتسمونه"، فالذين يجلسون في المسجد يتعلمون العلم ويتفقهون هم في الحقيقة يقتسمون ميراث محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إنما ورّث العلم ومن أخذه أخذ بحظٍ وافر.

فتركة النبي ﷺ وميراثه هو هذا الكتاب الَّذِي جاء به مع السنة المفسِّرة له المبيِّنة لمعانيه.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس "أنّه سئل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، يَعْنِي: دفتي المُصْحَف".

وفي «الصحيحين» عن ابن أبي أوفىٰ "أنّه سئل: هل وصىٰ رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: وَصَّىٰ بِكِتَابِ اللهِ".

وخطب ﷺ في مرجعه من حجَّة الوداع فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَوَّلَهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَىٰ الهُدَىٰ وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» خرَّجه مسلم.

وفي «المسند» عن عبد الله بن عمرو قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ، فَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ -قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَعُوفِيتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ؛ فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ».

قوله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**».

يريد أنّهم لم يورث عنهم سوىٰ العِلْم، وهذا يبيّن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقوله تعالىٰ عن زكريا أنّه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم].

إنما أريد به ميراث العِلْم والنبوة لا المال؛ فإن الأنبياء لا يجمعون مالًا يتركونه.

قال عليه الصلاة والسلام: «مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مُؤْنَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ عِيَالِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»، وَمَا تَرَكَ إِلَّا دِرْعَهُ وَسِلَاحه، وَبَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً.

فلم يخلِّف سوىٰ آلته بعده، والأرض التي كان يقتات منها هو وعياله ردها صدقة علىٰ المسلمين.

وكل هذا إشارة إلىٰ أن الرسل لم تُبْعث بجمع الدنيا وتوريثها لأهليهم، وإنما بُعِثوا بالدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله، والعلم النافع وتوريثه لأممهم.

وفي مراسيل أبي مسلم الخولاني، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ وَأَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ: أَنْ سَبِّحَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر] » خرّجه أبو نُعيم.

وفي الترمذي وغيره عن ابن مسعود أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

فقوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**». فيه إشارة إلىٰ أمرين:

أحدهما: أن العالم الَّذِي هو وارث الرسول ﷺ حقيقة، كما أنّه ورِث علمه فينبغي أن يُورِّثَه كما ورَّث الرسول العِلْم، وتوريث العالم العِلْم هو أن يخلّفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما يُنْتَفعُ به بعده.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إِذَا مَاتَ العبدُ انْقَطَعَ عَمَلُه إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

فالعالم إذا عَلَّم من يقوم به بعده؛ فقد خلَّف علمًا نافعًا وصدقة جارية؛ لأنّ تعليم العِلْم صدَقة، كما سبق عن معاذٍ وغيره، والذين علَّمهم بمنزلة أولادِه الصَّالحين يدعون له، فيجتمع له بتخلِيف علمه هذه الخصال الثلاث.

هذه فائدة عظيمة ثمينة جدًّا فانتبه لها، يعني قول النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» الثلاث تجتمع للعالم؛ لأنه ورَّث عِلْمًا يُنتفع به ويبقىٰ

علمه صدقة جارية ينتفع النَّاس بعلمه، بكتبه، بتصانيفه فتبقىٰ صدقة جارية، انظُر هذه الصدقة الآن التي بين أيدينا للإمام ابن رجب وغيره من كُتب أهل العلم التي هي صدقة جارية، لا يزال الناس ينتفعون منها علمًا ويحصّلون خيرًا ونفعًا.

وأيضًا قوله في الحديث: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» فإن طُلّاب العالم الذين تعلَّموا عليه وتلقَّوا العلم بمنزلة أولاده الصالحين؛ بل إنه في بعض الأحوال يكون بعض طُلّاب العالم أبر بالعالم من أولادِه، في دعائهم له ونشرهم لعلمه وأشياء من هذا القبيل كثيرة، فقد يكونون أبر من أبنائه به.

فالحاصل أن العالم هذه الأمور الثلاثة كلها تجتمع له التي لا تنقطع بعد الموت «عِلْمٍ نَافِعٍ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

وهنا نتذكّر أيضًا قول الله ﷻ في أوائل سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] فهذه الآية فيها أنَّ الكتابة لعمل العبد كتابتان: كتابة لعملك.. صلّيت، صُمت، تصدَّقت.. إلىٰ آخره يُكتب العمل أوَّل بأوَّل.

وثمة أمر آخر يُكتب أيضًا ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] فنكتب آثارهم، وهو أثر العابد أو أثر العالم، أو أثر النَّاصح أو أثر المعلم أو أثر المتصدِّق هذا يُكتب، فمثلًا: رجل بنىٰ دارًا للأيتام وصاروا يأوون إليها ويسكنون فيها ومات، بعد موتِه لا يزال يُكتب له هذا العمل، كلُّ يوم يُكتب له هذا العمل، ورّث كتبًا للعلم لا يزال يُكتب له، ورَّث علمًا يُنتفع به لا يزال يُكتب له حتىٰ بعد موته؛ ولهذا بعض الناس هم من سنوات ومئات السنوات أموات في قبورهم؛ لكن كل يوم يُكتب لهم، وهناك أناس يمشون الآن علىٰ وجه الأرض ولا يُكتب لهم عمل صالح.. يُكتب لهم سيئات، وفيه أناس في بطن الأرض أموات مدفونون كل يوم يُكتب لهم عمل صالح، وثمة أشخاص يمشون علىٰ أقدامهم علىٰ وجه الأرض تمرُّ الأيام والشهور لا يُكتب لهم إلا السيئات والآثام والعياذ بالله.

فقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] أي: كما يُكتب عمل المرء أيضًا يُكتب أثر عمله، وإذا كان الإصلاح والدعوة والتعليم يُكتب للمصلح هذا العمل، فكذلك والعياذ بالله المفسد، بعض المفسدين مات ودُفن ولا يزال فساده في الأرض موجود فكلما فعل الناس هذا الفساد الذي هو كان سبب فيه يُكتب عليه ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]، «من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيء، ومن

دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه لا ينقص من أوزارهم شيء».

والأمر الثاني: أن من كمال ميراث العالم للرسول عليه السلام ألا يخلّف الدنيا كما لم يخلّفها الرسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنّته في زهده في الدنيا، وتقلّله منها، واجتزائه منها باليسير.

لكن قال عليه الصلاة والسلام في هذا الباب ناصحًا: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرًا من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس».

كما كان سهل التُّستري يقول: مِنْ عَلَامَةِ حُبِّ السُّنَّةِ حُبُّ الآخِرَةِ وَبُغْضُ الدُّنْيَا، وألا يأخذ مِنْهَا إِلَّا زَادًا بُلْغَةً إِلَىٰ الآخِرَةِ.

وقال مالك بن دينار: إِنَّمَا العَالِمُ الَّذِي إِذَا أَتَيْتَهُ فِي بَيْتِهِ فَلَمْ تَجِدْهُ قَصَّ عَلَيْكَ بَيْتَه.

أي عرفت حاله من بيته وأنه ليس فيه تعلق بالدنيا.

رَأَيْتَ حَصِيرَةَ الصَّلاةِ وَمُصْحَفِهِ وَمَطْهَرَتَهُ فِي جَانِبِ البَيْتِ، تَرَىٰ أَثَرَ الآخِرَةِ.

إذا دخلت في بيته ترىٰ أثر الآخرة، كتاب العلم قريب منه والمصحف ومكان يصلي فيه، فترىٰ أثر الآخرة، بينما -الله المستعان- الآن عندما يُدخل في بيت كثير من الناس ترىٰ آثار الدنيا، وخاصة الفتن.. الفتن تملأ البيوت، ولهذا تمرض القلوب مرضًا عظيمًا، وتُضعف الإيمان وتخلخل الدين، وتؤثر حتىٰ في العقيدة والخُلُق.

وكان الفضيل يقول: احْذَرُوا عَالِمَ الدُّنْيَا لَا يَصُدَّكُمْ بِسُكْرِهِ، ثم قال: إِنَّ كثيرًا مِنْ عُلَمَائِكُمْ زِيُّهُ أَشْبَهَ بِزِيِّ كِسْرَىٰ وَقَيْصَر، أَشْبَهُ مِنْهُ بِزِيِّ مُحَمَّد ﷺ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَىٰ لَبِنَةٍ، وَلَا قَصَبَةً عَلَىٰ قَصَبَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ.

وكان يقول: العُلَمَاءُ كَثِيرٌ وَالحُكَمَاءُ قَلِيلٌ، وَإِنَّمَا يُزَادُ مِنَ العِلْمِ الحِكْمَةُ، فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وهكذا كان حال العُلَمَاء الربَّانيين كالحسن وسفيان وأحمد، اجتزؤوا من الدُّنيا باليسير إلىٰ أن خرجوا منها، ولم يخلِّفوا سوىٰ العِلْم، مع أن بعضهم كان يلبس لباسًا حسنًا، ويأكل أكلًا متوسطًا بعيدًا من التقشُّف كالحسن البصري؛ فإنه كان يأكل اللحم كل يوم، كان يشتري بنصف درهم لحمًا فيطبخه مرقة

طيبة فيأكل منه هو وعياله، ويُطْعِمُ كل من دخل عليه، وكان يلبس الثياب الحسنة، وهو مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وما زاحم علىٰ شيء منها قط.

وكان الناس إذا دخلوا عليه خرجوا من عنده، ولا يعدون الدُّنْيَا شيئًا، وما رأوا أشد احتقارًا لأهل الدُّنْيَا منه.

هذا يفيد أن الزهد في الدنيا ألا تكون الدنيا في قلب الإنسان، فقد تكون الدنيا في يده لكنه زاهد، وليست مستولية علىٰ قلبه ولا مسيطرة عليه زاهدٌ فيها، وهذا يُعرف في كثير من الزُهّاد؛ يعني مع زهده عنده دنيا، فتح الله عليه من الدنيا ويسّر له من أبواب الخير فيها، لكنَّها لم تشغله عن الآخرة ولم تلهه عن الآخرة، ومن الناس قليل ذات اليد وليس زاهدًا في الدُّنيا، قلبه كله متعلقٌ بها مع قلّة ذات يده.

فأصبح العبرة بالأمر في حقيقة الزُّهد عدم تعلُّق القلب، وانشغاله بالدنيا وأن تكون أكبر هم الإنسان، ولهذا جاء في الحديث «اللّٰهُمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا».

❀❀◈❀❀

وكانوا يدخلون عليه في مرضه يعودونه وليس في بيته إلا سرير مزمولٌ هو عليه، وليس في بيته قليل ولا كثير، حتىٰ قال ابن عون: "إِنَّمَا اسْتَبَدَّ الحَسَنُ النَّاس بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمَّا العِلْمُ فَقَدْ شُورِكَ فِيهِ".

وكان الحسن يقول: "إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ، المُجْتَهِدُ فِي العِبَادَةِ، القَائِمُ بِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ".

وكان سفيان الثوري أشد تقشُّفًا في ملبسه من الحسن، حتىٰ كان من يراه ولا يعرفه يظنه من السُّؤَّال

أي الذين يسألون الناس.

❀❀◈❀❀

وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبًا، وإن لم يجد حلالًا استف الرمل، وربما بقي ثلاثًا لا يطعم شيئًا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة، وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله ويقول: أطعم الزنجي وكُدَّه.

وكان أزهد الناس في الدُّنْيَا في زمانه حتىٰ كان يتعرىٰ بمجلسه عن الدُّنْيَا، ولم تكن السلاطين والملوك والأغنياء أذل منهم في مجلسه، ولا الفقراء والمساكين أعز منهم في مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه، فلما مرِض مرَض الموت حُمل ماؤه إلىٰ طبيب فَقَالَ: لَيْسَ لِهَذَا دَوَاءٌ، هَذَا قَدْ فَتَّتَ الحُزنُ وَالخَوفُ كَبِدَهُ.

ويقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه، ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

ولما مات قال بعض العُلَمَاء: معشر أهل الهوىٰ! كلوا الدُّنْيَا بالدين فقد مات سفيان -يعني ما بقي بعده أحد يستحيا منه.

وأما الإمام أحمد فكان أشد منهما تقشُّفًا في عيشه، وأكثر صبرًا علىٰ خشونة العيش وقلَّته، فكانت معيشته من حوانيت له ورثها من أبيه، ويأخذ أجرها في الشهر دون عشرين درهمًا، ومات لم يخلّف إلا قطعًا في خرقة له، كان وزنها دون نصف درهم، وترك عليه دينًا قُضي عنه من أجرة حوانيته مع كثرة ما كان يرد عليه من الخلفاء من الجوائز والصِّلات.

وكان يحيىٰ بن أبي كثير من العُلَمَاء الربانيين المتوسِّعين في العِلْم، وكان يقال: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مِثْلُهُ، وَكَانَ حسن الثياب، حسن الهيئة، فلما مات خلّف ثلاثين درهمًا كفّنوه بها رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان محمد بن أسلم الطوسي من العُلَمَاء الربَّانيين الزُّهّاد، فمات ولم يخلّف سوىٰ كساءه ولبده، فوضعوهما علىٰ نعشه وإناء للوضوء تصدقوا به. فكان النساء علىٰ السطوح يقلن في جنازته: هَذَا العَالِمُ الَّذِي خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِيرَاثُهُ الَّذِي عَلَىٰ جَنَازَتِهِ، لَيْسَ مِثْلَ عُلَمَائِنَا هَؤُلَاءِ عَبِيدُ بُطُونِهِمْ، يَجْلِسُ أَحَدُهُمْ لِلْعِلْمِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَيَشْتَرِي الضِّيَاعَ وَيَسْتَفِيدُ المَالَ.

وقال العباس بن مرثد: سَمِعْتُ أَصْحَابَنَا يَقُولُونَ: صَارَ إِلَىٰ الأَوْزَاعِي أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ السُّلْطَانِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَلَمَّا مَاتَ خَلَّفَ سَبْعَةَ دَنَانِيرَ بَقِيَتْ بَقِيَّة، وَمَا كَانَ لَهُ أَرْضٌ وَلَا دَارٌ.

قال العباس: نَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ أَخْرَجَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالفُقَرَاءِ.

وقد وصف الله سبحانه في كتابه العُلَمَاء بأوصاف منها: الخشية والخشوع والبكاء، كما سبق ذكره، ومنها احتقار الدُّنْيَا والتزهيد فيها كما قال تعالىٰ في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص].

وقيل للإمام أحمد: إِنَّ ابن المبارك قِيلَ لَهُ: كيف يُعْرَف العالم الصادق؟ فَقَالَ: الَّذِي يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَيُقْبِلُ عَلَىٰ أَمْرِ الآخِرَةِ. فَقَالَ أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون، وكان أحمد ينكر علىٰ أهل العِلْم حب الدُّنْيَا والحرص علىٰ طلبها.

واعلم أنّه إِنَّمَا أَهْلَك أهل العِلْم وأوجب إساءة ظن الجُهَّال بهم وتقديم جُهّال المتعبدين عليهم ما دخل

عليهم من الطمع في الدُّنْيَا.

وقد رأىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يقص، فَقَالَ له: لأَسْأَلَنَّكَ مَسْأَلَةً، فَإِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا وَإِلَّا عَلَوْتُكَ بِهَذِهِ الدُّرَّةِ، فَقَالَ له: سَلْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ له: مَا ثَبَاتُ الدِّينِ وَزَوَالُهُ؟

فَقَالَ له: ثَبَاتُ الدِّينِ الوَرَعُ، وَزَوَالُهُ الطَّمَعُ.

فَقَالَ له: قُصَّ، فَمِثْلُكَ يَقُصُّ.

وهذا السؤال من عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا القاص فيه إشارة إِلَىٰ أن من نشر علمه للناس وتكلم عليهم، ينبغي أن يكون ورِعًا عما في أيديهم، غير طامعٍ في شيء من أموالهم ولا أرزاقهم، ولا اجتلاب قلوبهم إليه، وإنما ينشر علمه لله عَزَّوَجَلَّ ويتعفف عن الناس بالورع.

وفي سنن ابن ماجه عن ابن مسعود قال: "لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا أَهْلَ زَمَانِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ».

وقال أبو حازم الزَّاهد: لَقَدْ أَتَتْ عَلَيْنَا بُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِنَا وَمَا عَالِمٌ يَطْلُبُ أَمِيرًا، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا عَلِمَ اكْتَفَىٰ بِالعِلْمِ عَمَّا سِوَاهُ، فَكَانَتْ الأُمَرَاءُ تغشاهم في منازلهم وتقتبس منهم، فَكَانَ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ لِلْفَرِيقَيْنِ لِلْوَالِي والمُولىٰ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الأُمَرَاءُ أَنَّ العُلَمَاءَ قَدْ غَشَوْهُمْ وَجَالَسُوهُمْ، وَسَأَلُوهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ هَانُوا عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا الأَخْذَ عَنْهُمْ وَالاقْتِبَاسَ مِنْهُمْ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الفَرِيقَيْنِ الوَالِي والمُولىٰ عَلَيهِ.

ودخل أعرابيٌّ البصرة فَقَالَ: مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ القَرْيَةِ؟ فقالوا: الحَسَنُ، قَالَ: فَبِمَ سَادهُمْ؟ قالوا: احْتَاجَ النَّاسُ إِلَىٰ عِلْمِهِ، وَاسْتَغْنَىٰ هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ.

وكان الحسن يقول: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَيْنًا، وَشَيْنُ العِلْمِ الطَّمَعُ".

وقال: "مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا فَازْدَادَ عَلَىٰ الدُّنْيَا حِرْصًا، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَمْ يَزْدَدِ اللهُ لَهُ إِلَّا بُغْضًا".

واجتاز الحسن يَوْمًا ببعض القراء عَلَىٰ أبواب بعض السلاطين فَقَالَ: "أَقْرَحْتُمْ جِبَاهَكُمْ، وَفَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالعِلْمِ تَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ رِقَابِكُمْ إِلَىٰ أَبْوَابِهِمْ، فَزَهِدُوا فِيكُمْ، أَمَّا إِنَّكُمْ لَوْ جَلَسْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُرْسِلُونَ إِلَيْكُمْ؛ لَكَانَ أَعْظَمَ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ".

وفي رواية: "تَفَرَّقُوا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، فَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَشَمَّرْتُمْ ثِيَابَكُمْ، وَجَزَزْتُمْ شُعُورَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ، فَضَحْتُمُ الْقُرَّاءَ فَضَحَكُمُ اللهُ، أَما وَاللهِ لَوْ زَهِدْتُّمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ لَرَغِبُوا فِيمَا عِنْدَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ رَغِبْتُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ فَزَهِدُوا فِيكُمْ وَفِيمَا عِنْدَكُمْ أَبْعَدَ اللهُ مَنْ أَبْعَدَ.

وفي الجملة: فمن لا يصون نفسه لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع غيره به.

قال الشافعي: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ تَفَقَّهَ نَبُلَ قَدْرُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ.

وفي هذا المعنىٰ يقول أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا

الحرص عَلَىٰ الدُّنْيَا والطمع فيها قبيح وهو من العُلَمَاء أقبح، فإن كان بعد نزول الشيب فهو أقبح وأقبح.

لبس بعض العُلَمَاء من التابعين ثيابه وتهيأ ليمضي لبعض الملوك فأخذ المرآة فنظر فيها فنظر في لحيته طاقة شيب، فَقَالَ: السلطان والشيب! ثم نزع ثيابه وجلس، وأنشد فقال:

قَدْ آنَ بَعْدَ ظَلَامِ الجَهْلِ إِبْصَارِي ... لِلشَّيْبِ صُبْحٌ يُنَادِينِي بِأَسْفَارِي
لَيْلُ الشَّبَابِ قَصِيرٌ فَاسْرِ مُتَّئِدًا ... إِنَّ الصَّبَاحَ قُصَارَىٰ المُدْلِجِ السَّارِي
كَمْ ذَا اغْتِرَارِي بِالدُّنيا وَزُخْرُفِهَا ... أَبْنِي بِنَاهَا عَلَىٰ جُرْفٍ لَهَا هَارِ
دَارٌ مَآثِمُهَا تَبْقَىٰ وَلَذَّتُهَا ... تَفْنَىٰ أَلا قَبُحَتْ هَاتِيكَ مِنْ دَارِ
لَيسَ السَّعِيدُ الَّذِي دُنْيَاهُ تُسْعِدُهُ ... إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ
أَصْبَحْتُ مِنْ سَيِّئَاتِي خَائِفًا وَجِلًا ... وَاللهُ يَعْلَمُ إِعْلَانِي وَإِسْرَارِي
إِذَا تَعَاظَمْتُ ذَنْبِي ثُمَّ آيَسَنِي ... رَجَوْتُ عَفْوَ عَظِيمِ العَفْوِ غَفَّارِ

نجزت، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم عَلَىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

وهذه الرِّسالة مثلما رأيتم مليئة بالآثار والنُّقول والفوائد العظيمة، التي جدير بطالب العلم أن يقرأها متأمِّلًا، وقراءتنا هذه أردنا أن نذكِّر بهذه الرسالة وقيمتها وأهمية مطالعة طالب العلم لها، وإلا فإن حقَّها أن تُقرأ بأناة وتمهُّل وتأمل في ما حوته من خير وفائدة عظيمة؛ لكن الإخوة بالقراءة السريعة رأوا أنه حتىٰ يكفي الوقت المقرّر لاستكمالها وقراءتها كاملة، وإلا إذا انفردت بنفسك وقرأتها بأناة وتأملت فيها، وجعلت أيضًا تقرأها مرة من بعد مرة فإنها تشحذ كما ترىٰ في نفسك معاني عظيمة من الخير والعلم، والرغبة والخشية والزُّهد، ومعاني جليلة جدًّا بثها الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ونحسبه من العلماء الربانيِّين، فبثها في هذه الرسالة النافعة المفيدة.

فنسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علّمنا وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألّا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك، أشهد ألا إِلٰهَ إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.